#9

شكري الميدي أجي

المكتباتي

19.8.2018

رواية



شكري الميدي أجي

المكتباتي

رواية



الطبعة الأولى، 2016

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961



ISBN: 978-614-8020-16-2

(1)

تقرير غير مكتمل عن المكتباتي

«السنوات لا تمر بسلاسة». هكذا اعترف المسنّ على نحو مفاجئ! كان يبدو صارماً، في حالة انتشاء روحي، إنما غاية في الصلابة، كرجل من البحرية أو أحد منتسبي تنظيم الكشافة القدماء، فالكشاف لمرة كشاف كل مرة. لم يكن يتألم، بدا متعادلاً كنت أعرف بأن أسفل كل هذا الصبر والجمود المتعادل، مشاعر متأججة. بلا شك. عيناه متسعتان تخفيان أكثر مما تظهران. محيطان مجهولان. وجهه الشاحب مليء بالتجاعيد المعقّدة التي تجعله أقل شحوباً، تمنحه مظهر المنشغل بالتفكير العميق، أقرب إلى وجه فيلسوف يصارع معضلة أخلاقية قديمة ليبدو ضمن أزمة بلا حل ممكن، إنما واقعي جداً. هادئ، بالرغم من أن كل أخدود من أخاديد وجهه يمثل يوماً شرساً عاشه. روزنامته الأزلية التي مضت. لحيته ناصعة مسترسلة على ملابسه الداكنة، تظهره بشكل باهر ضمن الضبوء الخافت حتى إنه بدا كإمام عباسي من القرن العاشر

لم تمر سنواته بسلاسة، هكذا أكد خلال جلستنا داخل مكتبته

الخاصة شمالي بنغازي، كان الوقت يشير الى منتصف الليل، جالسين بين الأرفف الثقيلة، الكتب تبدو بأغلفتها تحت الأضواء الخافتة كحرس ديكتاتوري، فيما أخذ البحر يهدر من وراء عتمة الهدوء. كان يعيد ترتيب قطع حياته منذ ولادته الأولى. تحت الضوء الخافت.

كان حديثنا. المجلدات صامتة، بأغلفتها الجلدية ذات الأحرف المذهبة التي تتراقص فيها الأضواء المنسابة من الطريق عبر نافذة المكتبة أو من المصباح المتدلي من السقف الرطب للممر الجانبي الذي يقود إلى صالة القراءة، رقصات الضوء ناعمة

أخبرني بأنه عاش طويلاً، كما قال بأنه شهد الكثير، استمعت إليه، لكل كلمة نطق بها، كنا داخل شقته التي غدت مكتبة فيها ما يقارب تسعون ألف من المجلدات القديمة، حين صمت عن سرد طفولته، استمر البحر المتوسط بالحديث بعيداً، استمعت إليه أيضاً، إلى كل موجة مست تراب المدينة، موجة تلو الأخرى، تكسرت زبداً، من النافذة المفتوحة كنت أرى بضع نجيمات تضيء بكسل فوق الميناء كدأبها منذ قرون «لم يتغيّر الناس فقط، إنما أشياء كثيرة تغيّرتْ». هكذا قال ثم أضاف مبتسماً: «كل شيء تغيّر لم أعد أميّز بين الأزمان، حين أتطلّع إلى الطرقات، أرى أرتال الدبابات من الجيش الثامن البريطاني لا تزال تغزو المدينة، تضجّ محرّكاتها عبر طرقات وأزقة بنغازي، كما أرى أكشاك القهوة الإكسبريسو، المكياطة، استمع لجنون البيتلز إلى جانب الموسيقى التي تضج في كل سيارة تسير في شوارع المدينة، شبان بملابس فضفاضة، بظهور منحنية للاستعراض وسراويل مرخاة. لم أعد قادراً على التمييز، حين أطالع أحاديث

العقاد عن برنارد شو، اقرأ افتتاحيات صحف الستينيات، أراجع حركة السياسة في المجتمع، بما يحدث حولنا مؤخراً من حركات سياسية عنيفة إلى الافتتاحيات الحديثة التي لا تقول شيئاً، اعتقدتُ دوماً بأن سبب هذا السقوط والتشويش هو الابتذال. ربما لم نعد قادرين على حماية تراثنا الحديث، لو كان هذا صحيحاً كيف يمكن حفظ التراث القديم، كما أعتقد بأن هذا الحفظ الحديدي نفسه قد يسبب الابتذال، ببقاء الشيء كما هو، دون التمحيص، التطور يجعل الأفكار القديمة المشاعة مبتذلة، الانتقاد، كشف جوانب الضعف، الإلمام بالجديد هو ما يجدد روح الحياة. منذ سنوات بدأت أشعر بهذا الاختلاف، حتى إنني حين أجلس في غرفة القراءة، أتخيل بأنني لا زلت أعيش في مارس 1955 أستمع للخطب الحماسية، أقرأ صحف تلك الأيام، أعيد قراءة الكتب ذات الأوراق الصفراء، مجلات تلك الحقبة التي خرجت من المطابع المصرية منتصف القرن الماضي، بدعايات مدهشة عن أجهزة التكييف، إنني ببساطة عشت أكثر من زمني».

المسنّ أعرفه منذ قرابة عشر سنوات، أمين إحدى مكتبات بنغازي، مكتبة خاصة لا يرتادها إلا الأشباح! عرفته عن طريق صديق مشترك، حين عرّفني به، كان يكتب دراسة عن اللغة السياسية في الصحراء، مستخدماً كتباً عن حروب السنوسيين كمراجع للدخول التاريخ الصحراوي، كنت معترضاً على كل شيء، مناقضاً فكرة انتقاء المرجع التاريخي التي يتبناها المؤرخون الشعبيون، لذا بدا لي اللقاء به كأنه لقاء مقدّر، انغمست معه في تحليل الكتب المتعلقة بالشعوب الصحراوية، كان يمتلك مجموعة كبيرة من المراجع، كما انه كان

قد ترجم على مرّ السنوات، مقالات هائلة استطاع جلبها مباشرة من الجمعيات الجغرافية والكشفية التي كانت مهتمة بشكل علني بالمنطقة حتى مطلع قرن العشرين، حين تحولت الأسرار إلى أكثر المقدسات حفظاً، كما إنه مهتم بالجمعيات السرية التي ظهرت ولا تزال تواصل الظهور في مجتمعات الصحراء.

خلال إحدى الجلسات أراني صوراً لمخطوطات قال بأنها نادرة جداً وإنها خرجت من مكتبة أحمد النائب شخصياً، ثم أخذ يسرد كيفية حصوله على تلك المخطوطات، ربما كانت تلك ذريعة للحديث عن التاريخ الشخصي للمكتبة، بدايةً من أسلافه أمناء المكتبات الذين أنقذوا جزءاً كبيراً من مكتبة مصطفى الخوجة، التي قررت زوجته حرقها ربما انتقاماً بعد وفاته. كانت ضحكته مشوبة بشيء من الحزن والسخرية، حين يتحدث عن طرائف الزوجات، أخبرني كأنه يذيع سراً: العدو الأول للكتب هي الزوجة. تلك الطرفة التي اكتشفتُ لاحقاً بأنها مزيّفة، ليست إلا تبريراً للنقمة التي أحاقتْ بالمكتبات الأصلية، من تشويه خلال حياة مؤسسيها والانتقام من الكتب بعد وفاة أو قتل مؤسسيها.

كان المسنّ يتطلع إليّ مبتسماً، ثم يمسح دموعه التي كادت تنساب من عينيه كلما أغرب في ضحكة مكتومة بلا صوت ترج كامل جسده، لم يكن يقوى على كبح مشاعره المتأججة.

أخبرني مرة حين كان يتحدث عن بلوغه الستين، بأنه أصبح غير قادر على التحكم بمشاعره، كثيراً ما استغرق في البكاء لسماعه قصص المحزونين، وإنه لمس بأصابعه تلك القصص المتعلقة بالزهاد

القدماء، الذين أخطأوا طريقهم في الحياة ليلاقوا مصائر بشعة، لم يفهم تلك المشاعر المتناقضة، ذات مرة استغرق في النشيج لأجل تذكّره حكاية وفاة والده حين كان في التاسعة، كما إنه في تلك الأيام أخذ يقرأ عن الحروب الأهلية وولادة الدول، هاله مدى الدمار والموت اللذين ينشران أجنحتهما فوق المدن. كان يتحدث بصوت هادئ، إنما لا يخلو من الحماس.

أثناء تلك الليلة بدا كأنه يعاني أعراض نوبة هستيرية، حكى لي عن فقدانه لوالده مراراً، كان يردد الجملة الواحدة عدة مرات، فيما تبدو محاولات شبه يائسة لتذكّر كل شيء دفعة واحدة.

«بكيت بشدة – كصوفي قديم، قال – إنهم لا يستطيعون رؤية جمال العالم، كم يتألم قلبي! أتطلع إلى السماء، للنجوم المضيئة، أستنشق عبير الأرض المعجونة بالماء والعرق، استمع لرقرقة المياه الجارية في الصخور كما تسحرني العيون النابعة في قلب الصحراء، أحياناً استغل المساحات في الضواحي لأستغرق الوقت مستمعا لأصوات الطيور، استشعر بلا نهاية، جمال الكون، . كم أشعر بالحزن لرؤية شخص يعاني أو نحلة مقصوصة الجناح، أو طير غير قادر على الطيران، جمال الأزهار ورقرقة المياه في الصخور، تجعل أعصابي تهيج، عندها لا أعود قادراً على التحكم بانسياب دموعي، كم مرة بكيت لساعات بين أرفف الكتب، لأني قرأت عن موت إنسان في القرن السابع، لا استغرب بكاء الشعوب على أحبائهم من القادة، الحزن الذي لف العالم حين مات جيفارا، الأغاني التي تعيد ذكره، رثاء شوقي للمختار، قصة موت الحسين حفيد النبي، الخطب الأخيرة

للإمام علي، محزنة محزنة، آه، إنها باعثة على البكاء، دموعي لا تتوقف. يقولون مجنون، تقول مجنون. لا يهم، كل هذا لا يهم، إنه لا يفقدني صوابي، كثير من رفاق دربي قالوا بأني لا أفهم ما يحدث بشكل واقعي، إنني لا أعي أبداً ما أقول ليكن، من بوسعه فهم الآلام الآخرين؟ من بوسعه فهم كل هذا الجنون؟ بالتأكيد لست أنا. مطلقاً، إنني أبكي بشدة، لأنهم غير قادرين على رؤية جمال الكون وآلامه! لم أفهم الصوفية يوماً، إنما مشاعر الحب والخوف كانت دائماً تجتاحني، كل مظاهر الطبيعة، تحوي عبراً عن الحب والخوف».

لسنا دائماً بهذه الصوفية! غالباً ما نترك حديث المشاعر بعيداً لنشرع في قصص واقعية عن ماضيه أو فترة طفولتي في بلدتي تازر، إنما ما كنت لأرتكب خطيئة الحديث عن حياتي أمام مسنّ في التسعين! يلتهم الوقت لكي يسرد ما عاشه، إنه محتاج لكل ثانية، مطلقاً لن أرتكب خطيئة الحديث عن ذاتي، لذا تحكمت بجنوني الشخصي، واستمعت إليه بعمق كامل.

كنا جالسين في تلك العتمة، ربما لليلة الثانية بعد العشرين، تحكمنا نصوص قديمة، كما تحكمنا أحداث وقعت قبل عدة عقود. كنت في تلك الفترة قد عرفته جيداً، بالرغم من إنني لم أكن أعرف تاريخه الشخصي، إلا إنني فهمت شخصيته الحقيقية، ثم حين بدأ الحديث عن مكتبة أحمد النائب، شرح قليلاً عن نفسه، إنما لكي أعرف عنه أكثر انتظرتُ قرابة السنة لأجمع ما يساوي أكثر بقليل من ألف كلمة، في شرحه عن عائلته، شرحاً لم يتعلق كثيراً بالمكتبات، بالنسبة لرجل قضى قرابة سبعين سنة في المكتبة. لم يكن يحتكّ

خلالها كثيراً بالناس، كانت تلك العقود في مجملها سنوات عزلة، عاصر خلالها مدينته، كمن يعيش في فقاعة هوائية، لا هو متصل بها ولا هو منفصل عنها، إنما يعيش في قلبها بمشاعر العزلة الكاملة، كان يعبر الطرقات، يقرأ مانشيتات الصحف، منذ الستينيات حتى تلك المرة التي اعتزل فيها نهائياً، مقرراً عدم الخروج للأبد، كان ذلك عام 2003 حين تعرّف على شاب يرتب له حياته، داخل المكتبة، لو لم أكن عاصرته، عشت معه، لو لم أكن رأيت بأم عيني أسلوب حياته، ما كنت لأعتقد أن يكون هناك أناس رافضين للمجتمع بقدره، لم يكن يشتم الناس، لم يكن ينتقدهم، إنما كان فقط لا يعيرهم انتباهاً، إلا نادراً.

أخبرني عن قصة حادثة قديمة اهتم بها في شبابه: «سنة 1965 كنت أعبر سوق الحشيش - قال - حين استوقفني مشهد لشابين يتشاجران، كان يلكمان بعضهما بشدة ووحشية، دون أن يكلّف أي منهما نفسه عناء تغطية وجهه أو تفادي اللكمات، كانت القبضات المشدودة، تقع على العظام مباشرة، لتسحق تحتها اللحم وتتفجر الدماء، كلاهما مفتول العضلات كرجال البحرية. كنت أحدّق فيهما دون أن أجد الرغبة في فصلهما عن بعضهما، تلك الليلة شعرت بالندم الشديد، لأني أحسست بالزهو وبالراحة حين رأيت دماء أحدهما تنزف من عينيه ليسقط مغشياً دون أن يكف عن الحركات المتشنجة.

صباح اليوم التالي، قرأت في زاوية صغيرة خبراً مفاده: بأن ملاكمين هاويين كادا يقتلا بعضهما، ليلة البارحة. بالرغم من الألم الذي شعرت به في الليل إلا إنني شعرتُ بالزهو ثانية، حتى إنني

فرحتُ لأنني الشاهد الوحيد لتلك الملاكمة بين بطلين ولا شك، كانت العضلات المفتولة لا تزال تشتد أمام ناظري، الدماء المتناثرة، سن أحداهما، رأيتها ناصعة البياض ضمن عتمة الليل، كانت ليلة مميزة، حتى إنني رغبت في مشاهدة مباريات الملاكمة العنيفة، استعدت في ذاكرتي، مباراة قديمة في مرفأ بيروت بين عملاقين مجهولين، تم الإعداد لها بدعاية هائلة مرمزة كمنشورات القوميين العرب في تلك الفترة من الخمسينيات، عبر الصحف البيروتية، لقاء أموال، لم أكن أهتم كثيراً بتلك المباريات السرية، كان معي رفيق يوناني من الاسكندرية، لا يعرف في الدنيا إلا شيئين: **الرهان وجمع الكتب**. راهن متحمساً على أحدهما - الأنحف منهما بين الاثنين - قال بأن لديه نظرة أسد وقبضتيه قويتان، ثابتان ليس مثل الآخر الأكثر ضخامة بكثير إنما يبدو كأيل، فريسة.

يومها كسب الكثير من النقود من البحارة والعتالين. كان يبرر فعلته رافعاً نسخاً من رواية الشيخ والبحر، فالحياة في نظره مقامرة بلا نهاية، أتذكّره ضاحكاً كالمجنون، حين أجلس في عتمة المكتبة، أتذكّر لمعة القبضات، ورنة ضحكته البعيدة، إنهما أمران يدفعاني للوحدة العميقة، أكثر وحدة من منبوذ سياسي».

السنوات لا تمر بسلاسة مطلقاً، إذا تعلّق العيش بضرورة فهم الحياة من خلال ذوات أشخاص آخرين قضوا قبل أكثر من قرن. الأنانية لا مكان لها. فالعيش في الوحدة عندها يغدو لأجل سبب نبيل يتجاوز حب الذات، بل إن وحدها فكرة الحديث عن الذات تغدو مبتذلة، حتى وإن كان الابتذال مزاجاً عاماً يظل مؤذياً. جميعنا نعاني

الخوف من الابتذال، أليس كذلك؟ ربما لأجل هذا الخوف، نصنع جزرنا الخيالية الخاصة، هواياتنا، ابتساماتنا ولحظاتنا التي نُحيط بها بكل سرية ممكنة. هذا ما فعلته تلك الليلة، السرية المعيشية للمرة الأولى، هو نفس ما ظل يفعله صاحب المكتبة - المسنّ المكتباتي - منذ قرابة خمسة عقود كاملة، يُقفل على نفسه باب حجرته. طوال هذه العقود، انعزل تماماً عن باقي العالم كما فعل ذلك كثيراً في المكتبة، منذ التحقتُ به كمساعد شخصي. كل هذا فيما كانت النجوم القليلة تشع فوق سماء بنغازي، بدأتُ اسمع حفيف أوراق مذكراته، صوته الأجش الخافت أثناء قراءته لكتاب جورج برنارد شو: **جوهر الأبسنية!**

كنت أقترب من ماضيه ببطء شديد، أحاديثي معه غير مكتملة، أضطر دوماً لأن أعيد تذكّر كل حديث عقب آخر حديث، اجمع الكلمات بصبر في دفتر يضم كل ما قلناه معاً من كلمات؛ طوال السنة الأولى كتبت بضبط نصف صفحة من الكلمات المتكررة، من حوالي ثلاث صفحات، تشرح حالته اليومية من أفعال روتينية، قراءة، ملابس، بل حتى السير مع عدد الخطوات التي يقطعها عبر الممر إلى أي حجرة افتراضية أخرى، ببساطة كان أقرب إلى زاهد صوفي، الجديد هو إنني قبل مدة اكتشفتُ بأنه يدوّن يومياته أو ربما مذكراته، أمر طبيعي بالنسبة لشخص يسكن مكتبة تحوي عشرات الآلاف من المجلدات كما أنه من الطبيعي أن يهتم بهذا القدر بفكرة العزلة والخوف من الابتذال، فالتاريخ الذي تخصص فيه، مليء بالأحداث المبتذلة، ذات مرة حكا لي قصة القادة الذين تم تصفيتهم أثناء حفل عشاء، بعضهم كانوا لا يزالون يمضغون لقيمات في أفواههم، فيما

السلاح ينهش لحومهم، كان ذلك في بنغازي، في عينيه كان بريق الغضب والحزن، مشوباً بشيء من القلق. أخبرني مبتسماً إحدى أكثر الأمور التي أقلقت باله في فترة شبابه:

«حين كنت شاباً، كنتُ أخشى الموت وأنا آكل أو أن أقتل لسبب ما فيما أحمل كيس طعامي، كنت لا أخرج من غرفتي كي لا أموت فيما أنا أحمل الطعام، حتى إنني كنت أصوم طوال الوقت، لا أكل إلا القليل، أشرب غالب الوقت أكواب الماء، حين أتذكر هذا، أدرك مدى تمكّن الخوف، سيطرة الأوهام على الحياة، حتى إنني بدأت أدرك بأن الحياة لا تعني أكثر من مجرد فكرة في الذهن، لوقت طويل سيطرتْ عليّ هذه الفكرة التي يمكن اعتبارها أنانية محضة، لكن لكل فكرة مبرر».

ضحك تلك الليلة، لم أجد الوقت لسؤاله عن ضحكه المبرر. كانت ضحكته، مليئة بالألم ثم قال: «لا أظنني أضعتُ وقتي بمخاوف طفولية بلا معنى، فالتاريخ يحفظ بعض الحقائق، تستطيع أن تقرأ، ما كنت خائفاً منه يحدث كل يوم».

عندئذ استغللت لحظة الهدوء، فسألته:

«كيف كانت طفولتك؟».

تطلّع في وجهي، كان ينظر من خلالي لا شك إلى طفولته، فيما كنت أتخيّل دودة كتب قال متقافزاً من حكاية لأخرى، أثبتها كما تحدّث:

«ولدت عام 1936 بعد خمس سنوات من إعدام المختار، عبر

شوارع بنغازي المدمرة قضيت طفولة غير مشوّقة، كانت الطرقات مسدودة بحطام المباني المهدمة بفعل القصف، والدي مات مقتولاً عام 1944 أتذكر بضع لحظات معه، أما الباقي فقد تكفّل الجميع بتذكيري به، ما عدا والدتي التي صمتت حتى ماتت صامتة، لم تحك عن أبي مطلقاً، لا اذكر بأني سألتها، لا أعرف لماذا لم اسألها، كان يتوجب علي أن أفعل، أي ابن طبيعي كان ليفعل، إنما ربما لم أكن طبيعياً، لكن خالي كان أكثر من يتحدث عن أبي، خالي يوناني بحار، رافقته مطولاً في رحلات عبر البحر المتوسط، كان أعرجاً مثل قرصان، يضحك مسمياً نفسه خير الدين بربروسا، كان يمتلك ببغاء خشبية، يضعه في حالات السكر وليالي رأس السنة على كتفه، يشرع في رقصات شركسية، كما تعلم برفقتهم، فأنا بالرغم من كوني شركسي إلا إنني لم أكن أرقص مثلهم .

ذات ليلة أسقوني برميل نبيذ كامل، ليوقضوا بذرة الرقص التي تجري في دمائي، حينما لم يستطيعوا شكّك بعضهم في شركسيتي، كنت أضحك وقتها، ثم لفتُ نظرهم كما أخبروني صباح اليوم التالي بأن ليبيا تفسد كل انتماء، ثم بدأت في درس عن القرمانليين، الشركس الذين أنتمي إليهم، الأتراك والكول أغولية، كلهم تخلصوا من ماضيهم، أصبحوا ليبيين أكثر من الليبيين القدماء، أسسوا الدول، سنّوا شرائع الدول الحديثة، كانوا يضحكون مني طوال الليل، فيما رحت أرقص على أنغام موسيقى حزينة عن الإبادات الجماعية والهجرة بمشاعر الوحدة، لفت خالي نظري قائلاً بأنها قد تكون أي شيء إلا أن تكون رقصة، ثم لمح بأنه كيوناني أعجب كثيراً بحركاتي الشجاعة

المليئة بالشغف والمنطقية، عندها نقرت على صدري بأصبعي قائلاً: شركسي، هذا ما أنا عليه، شركسي. غمز لي مجيباً: لا يمكن نكران هذا إلا حين ترقص، فأنت يوناني. هذه الذكريات لا تكف عن التوارد إلى ذهني، عندها اشتاق لأبي بشدة، لم يفارقني هذا الإحساس حتى وأنا في هذا العمر، حتى حين قررت أن أكون الشخص الذي يمثل أبي بالقليل الذي اعرفه عنه، ظننتُ بأني وجدتُ هويتي، طوال عشر سنوات حتى بلوغي الثلاثين كنت أباً لنفسي، كنت أفعل أشياء مجيدة وأنسبها لأبي، حين أصمد في جولات الشرب، لا بد بأن أبي هو من فعلها، حين ألقي جملة جيدة لا بد بأن أبي فعلها، حين أؤدي مهامي كما يجب، الأشياء الجيدة هي دائماً لأبي، مع الوقت لم يتبق لي الكثير، لم أكن أعرف هذا، كنت أجاهد للمحافظة على القليل مما أذكره من تفاصيل والدي، الذي علمت بأنه قتل على أيدي الحلفاء، لأنه كان جندياً بالخطأ ضمن طوابير الجند الإيطالي.

الصورة الوحيدة التي أمتلكها قام بالتقاطها مصور إنجليزي لمجموعة جنود ليبيين يتم إعدادهم للقاء الأمير إدريس السنوسي، فيما هم مصطفين، كما تم نقل القصة لاحقاً، ظن والدي بأنه سيتم إعدامه. بعدها بسنوات اكتشفت جدي، أحد رفاق والدي وهو لبناني زارنا، تحدث عن الكثير، عما كان يؤرق والدي، معضلته كانت تكمن في والده المجاهد، هذا ما اخبرني به، كان جدي رجلاً جاء بتحريض من الأمير اللبناني شكيب أرسلان، انضم متطوعاً إلى المجاهدين المرافقين للسيد أحمد الشريف عام 1912 انتقل معهم طويلاً من مدينة لأخرى، من جبهة قتالية لأخرى، حتى تم قتله في معركة خاطئة

أمام الإنجليز على الحدود المصرية، أعدمه الإنجليز لتخوّفهم من السنوسيين الموالين للأتراك عقب الحرب العالمية الأولى، الأخبار تتحدث عن إعدام جدي مع مجموعة أخرى، قبل فرار الإنجليز من الحدود المصرية. والدي لا شك أرقته تلك القصة، فحين جعلهم الإنجليز يصطفون على ذلك النحو، على الحدود المصرية بعد تصويرهم. في صورة يظهر محتداً، شاداً قبضته بعصبية، في وقفة معتدلة كعسكري بالغريزة، يبدو بأنه تهجم عليهم، فأردوه قتيلاً.

كلاهما قتلا خطأ، الإنجليز لم يعرفوا ما حدث. عندما بلغت الخامسة عشرة، كنت في عباب البحر مع خالي من مرفأ لآخر، من دولة لأخرى، دائماً كنت أجد الوقت لأتساءل عن المعنى الحقيقي للتاريخ، عن سلاسة السنوات حين تمر، عن الجهامة التي تبدو بها حين نعيشها، إنما كل ذلك الحزن ظل مقترناً بكل هذا الجمال الذي يشرق على اليابسة من أعماق البحار، الصباحات اللامعة في البحر المتوسط، سحرت بمرافئ بيروت، إسكندرية، جزر البحر الأبيض، ثم في إحدى مكتبات بيروت عام 1955 أهدتني فتاة شركسية كتاباً مجلّداً محلياً بعنوان: «نافذة المكتبة». بين أرفف تلك المكتبة ولدت هويتي».

إذ ذاك كانت سنواته تمر سلسة! كنبة وثيرة، جلسة هادئة، أمام المجلدات الضخمة للتاريخ الليبي من أزمان سحيقة. مخطوطات، ترجمات، سير ذاتية، أعمال أدبية، لكنه يراها مكتبة بلا قيمة أحياناً، لا شيء حقيقي بالمطلق. بدأ يروي لي حكايات قديمة من سنوات عشرينياته.

(2)

تصرفات شخصية مرتبطة بالمكتبة

خلال تلك السنين كان يلتقي بالمؤرخ الليبي المعروف باهتماماته بالتاريخ الشعبي الطريف وصاحب الدراسات عن تاريخ الأجانب في البلاد، انطباعاتهم، كتاباتهم التي ينقلها بحماس من ثلاث لغات إلى اللغة العربية. كان المؤرخ آنذاك شاباً، كما كان هو. روى له حادثة بسيطة، أعاد المكتباتي روايتها لي بكلمات أكثر بساطة.

كان المؤرخ قد عمل لسنوات في جمع مادة تتحدث عن عشق المجاهدين، كان قبلها كتب بشغف نادر المثال عن قصص التقاء المجاهدين بالطليان، كما كان يكتب قصة عشق ولدتْ بين توسكانية وأحد المجاهدين آنذاك، وإن كانت أقرب لقصة خيالية. مادته الكتابية الفائقة تلك اضطرته لجمع أشعار العشق ذات البيت الواحد، والتي رددها المجاهدون أو نُقل عن كونهم رددوها أثناء الجهاد، واحتدام المعارك، بعضها تصف عيني المعشوقة، فيما أبيات أخرى تائهة تروي لقاءات يتيمة بين المجاهدين وصبايا القبائل عند موارد المياه، تلك المادة كانت صغيرة، قرابة تسعين صفحة مكوّنة من عشر حلقات

للنشر في الصحف المحلية، تسعون صفحة تُظهر قطاعاً كبيراً من المجاهدين عشاقاً يقاتلون الطليان لأجل حبيباتهم، أشعار يتم ترديدها خلال الأعراس القبلية، القصص البطولية التي تتضمن أحصنة مزيّنة بإتقان، تبدو رهيبة حين يعتليها الفارس بكامل سلاحه الاستعراضي. كلها كانت تخدم الصورة البطولية التي تُرسم لأجل الجهاد، كأنها جزء مهم من العمليات القتالية. حين أنهى مجلده، ودفعه للنشر في احدى الصحف الصاعدة خلال الستينيات، تدخّلتْ الدولة ثم سحبتْ الدراسة، لأول مرة رأى الشرطة يقتحمون بيتاً، لا لأجل القبض على مجرم هارب أو حيازة مواد ممنوعة كالأسلحة الثقيلة والخمور المحرمة، إنما لأجل حيازة أوراق عليها كتابات عن العشق الشعبي.

«نسخة من تلك الدراسة تقبع بين أكوام الدراسات في العلية - قال المسنّ بخيبة - تحوي أشعاراً باهتة عن خيول مطهمة، بدويات بأعين سوداء واسعة كالضباء المرتعبة، متينات كجذوع أشجار النم، مرنات الأجساد كالخيزران، مبتهجات على الدوام. صفحتان كاملتان تتحدثان عن الأوشام الخضراء، الأجساد الفتية الدافئة الملفوفة بعناية كقطع الحلوى والتوفي، أحلام العشرينيات، حين اشتعلت الحروب بلا نهاية، تأججتْ قصص العشق كالحمم البركانية الغاضبة، لقد كتبتُ دراستي الخاصة حول الموضوع، ربما في عشرين صفحة، إنها في مكان ما بين أكوام الدراسات، إنها في مكان ما في المكتبة».

حديث المسنّ، قصص متتابعة، عيناه المتقدتان تارة، خامدتان كالرماد تارة أخرى، أصابعه النحيلة تتواثب برشاقة على جانب الكنبة فيما استلقتْ أصابع يده الثانية كوحوش مترعة، بهدوء بالغ على ظهر

مجلد تراثي بغلاف ثقيل وغامق، بكلمات مذهبة بارزة، كان بوسعي رؤية باقي المجلدات المصطفة جيداً وعلى نحو رائع كانضباط حرس ثوري فائق، فيما ظلّتْ ألسنة اللهب تتراقص ضمن صفرة الأحرف!

«كنت في العشرين حين بدأت التخطيط لكتابي الأول – قال المسنّ – ولدتُ في طرابلس، لكنني منذ شهري العاشر ترعرعت في بنغازي؛ مطلقاً لم تكن الأمور عادية، ولم أكن أعرف هذا. البلاد التي أذكرها كانت تموج في الشتات على أطراف العالم الجديد. الحروب في كل مكان، كان من الطبيعي أن ننتقل إلى مصر. بعض ما استطعتُ جمعه عن نفسي، يؤكد بأن والدي على علاقة مباشرة بالعائلة السنوسية، تكاليف معيشته كانت في مصر بكفالتهم الشخصية، كذلك ربما دراستي. أذكر بأننا زرنا السنوسي الكبير آنذاك، لم يكن كبيراً، كان شاباً، هادئاً حتى كأنه ليس هنا. قبل أن يعود إلى ليبيا، والدي شرع مخططاً لأجل العمل على متن باخرة في الميناء السكندري. صاحب باخرة يوناني، يكون خالي. أمر لم يحدث مطلقاً، لكنني صرتُ بحاراً لفترة. حين أعيد تذكّر تلك الأحداث بعد كل هذه العقود، أجد بأنني كنت دوماً مقرّباً من خالي اليوناني، كنا نعمل معاً على حمل البضائع، في رحلات مرهقة نحو قبرص، كريت، مالطا، نابولي، مرسيليا وإلى بيروت. علّمني الرقص كيوناني، مستخدماً كتابات كازانتزاكي، كما علّمني تدخين الغليون كبحار أمريكي ملعون.

الحزن يدمي قلبي كلما وجدتُ نفسي في خضم هذه الذكريات، بمرور الأيام لم أعد أحتملها، ليت تلك السنوات لم تنصرم».

نكس رأسه بصمتْ ثم تنهد.

«مع مرور السنين تتغير الأشياء – قال المكتباتي بصوت يغمره الشجن – كنتُ أدرك ذلك منذ زمن طويل، لكنني لم أدرك ما الذي يتغير بالضبط، طعم الأشياء، المشاعر التي تصاحبها، اختلاف الذكريات التي نكوّنها عنها خلال حياتنا القصيرة، أحسستُ دوماً بأن هناك تغيّرات جزئية غامضة لكنني لم أعرف مطلقاً هذه الجزئية الغامضة».

«معرفة أسلوب التغيير دوماً مساءلة مثيرة للدهشة!».

هكذا أضفتُ بهدوء كشيء طبيعي.

«صحيح – أضاف قائلاً بنبرة مترددة – حتى إن التغيير نفسه يُعتبر أقل تعقيداً بالمقارنة مع أسلوبه وسرعته بالنسبة لشخص في العشرين، تخيّل حجم ذلك التعقيد بالنسبة لمسنّ في الثمانين يعاني ذكرياته القديمة».

«بوسعي تخيّل ذلك».

قلتُ:.

«التخيل المجرّد وحده لا يكفي ولا يعني شيئاً – قال المسنّ المكتباتي – دون معرفة أسباب تخيّل مثل هذه الوضعية، يغدو كل شيء هباء، أنت بحاجة لمعرفة الأسباب التي تدفعك لهذا تخيّل، الأسباب المقنعة التي تقودك لتخيّل نتائج مهمة وجيدة بالنسبة لإيجاد تفسيرات مقنعة حول وضعي ضمن المكتبة مثلاً».

آنذاك كنتُ أسعى لكتابة سلسلة مقالات عن علاقته الممتدة

بالمكتبة، حين أتيته للمرة الأولى لم أكن أعتقد بأنني سأحوز نتائج جيدة، لكن الواقع كان مختلفاً، استقبلني بصمت واستسلام، تاركاً لي حرية الحديث طوال ثلاث دقائق كاملة، ظللتُ خلالها أعبر مساحات أفكاري المعتمة كالسهوب الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية.

مع الوقت بدأت تلك الحقول تزهر ببطء شديد، الثلوج أخذتْ تذوب، المعالم انبثقت من تحت الغموض فرحتُ أتحدث بسلاسة عن مستقبل البلاد، عن اختفاء المكتبات العامة في المدينة والمدن المجاورة، تحوّل عملية القراءة إلى استهلاك فظيع في الحياة الأسرية ربما أخبرته عن النكتة القاتمة المتداولة عن المكتبة التي تحوّلتْ الى محل الخضار. استمع إلي بصمتْ ثم رفع رأسه فجأة أثناء حديثي، صفّق بيده.المتجعّدة كمسودّة غير ناجحة.

«جيد، موافق».

كنتُ في فوضى الحديث قد أخبرته عن رغبتي بكتابة سلسلة مقالات عنه، لكنه طلب مني أن أساعده في المكتبة قبل كل شيء، أن أتيه كل صباح كمن يذهب لدوام عمل وأن لا أتركه إلا بعد الساعة العاشرة، ثم ابتسم بشحوب مغلّف تحت التجاعيد الأخدودية قائلاً:

«قضيتُ زمناً طويلاً وحدي، حان موعد إنهاء ذلك».

بطلب من المكتباتي أشعلتُ جميع الشموع التي على الأرفف. تراقصتْ الظلال مع الأضـواء، ارتسمتْ على الأجرف المذهبة كالابتسامات الطفولية، المجلدات كالشعوب التي تحررتْ، تمددتْ قاماتها مع الأرفف حتى لامستْ السماء المعتمة للمكتبة، أصبحتْ

كلها كتلة واحدة من الهدوء والشعرية. كانت ليلة مدهشة، انحنى مقترباً مني بهدوء، في عينيه الجليديتين لمعان طفولي: «هكذا تبدو الليالي أكثر إقناعاً للذهن، والنفس أكثر هدوء». كان يبدو بمظهر شيطاني كأديب قديم، حين يُضاء جزء من وجهه، حتى تبدو لحيته الناصعة غير مشذبة، بل أقرب إلى الفوضى والتوحش، عندها يتخذ شخصية الجاحظ في ذهني، المجلدات المرتبة على الأرفف من حولنا، أقترف الخطيئة، أجدف في ظنوني بعيداً، ربما هو أحد المتبقين من الهيئات الاستخباراتية الأوروبية، كنتُ قرأتُ تقارير سرية ضمن ملفات صحفية تم تسريبها مؤخراً، تقول تلك التقارير بأن أشخاصاً من بعض البلاد تم تدريبهم على البقاء ضمن الحشد، بعيداً عنه في ذات الوقت، كعقول لتلك البلاد، ليسوا جواسيس إنما عقول توجّه الحياة الفكرية للمجتمعات بما تجمع من الأحداث اليومية، الشائعات، القصص التي تؤثر في العائلات الكبرى، الوسطى والعامة.

كانت تلك الهيئات عقولاً تدير المنطقة فيما سبق، أسسها الطليان مصادفة، حين كانت تمنح بعض المعونات للنوادي الثقافية والرياضية التي غدتْ دوائر نشطة لاستقطاب الأغلبية المؤثرة في المجتمعات الصغيرة الشجاعة، بعد انقضاء عقد من الاستقلال، وقبله منذ انتهاء الحروب العالمية، لم تتوقف تلك الدوائر عن العمل الاستخباراتي إلا إنها فقدتْ طابعها الثقافي والرياضي، لتغدو تلك مراكز أقرب إلى صالونات ثقافية مهجورة تم ترميمها حتى فقدتْ كل طابع شعبي. صارتْ اشبه بلوحة لوجه كالح، لإنسان وحيد وبدائي، حاول الناس تناسيها، إنما في الواقع اليومي أخذتْ تلك المباني تأخذ

سمعة أخرى مخالفة، من عقول استعمارية إلى مباني قائمة مشبوهة، لا يُعرف بضبط ما يحدث وراء جدرانها، فأخذوا يرددون حولها الأساطير خلال الليالي الشتوية الباردة. هناك شائعات عن صراخ يصدر أيام الجمع من كل أسبوع من داخل تلك المباني، البعض يؤكد بأن هناك عناصر أجنبية تعمل في الخفاء، وإنها لا تزال مراكز للتحقيقات السرية كما كانت من قبل تماماً.

خلال الخمسينيات انتقل المبنى ليكون مركزاً خاصاً لأحد المسؤولين المكلفين بالاهتمام بالمفاوضات حول الشركات البترولية الوافدة، اهتمتْ الشركات الأمريكية - الأوروبية بالمبنى كثيراً، أضافتْ إليه تحسينات عصرية بمقاييس ذلك الزمن، كما منحتْ توكيلات افتتاح مكاتب استشارية مع توسيع عملها لأجل تحقيق النهضة الصناعية والثقافية المزمعة في البلاد. خلال تلك الفترة تحول المبنى إلى نواة لمركز ثقافي قائم على أنقاض النوادي اليهودية. ضمن إحدى الأقسام ثمة مجلدات ضخمة لصحف أجنبية اهتمتْ بالتنمية والتطوير السياسي والثقافي للمنطقة، صحف ودوريات عالمية مثل كوريري ديلا سيرا: مراسل المساء، ذا نيويوركر، التايم والأهرام المصرية. المبنى السكني كان يحمل سمات المكاتب الاستخباراتية السابقة كالتي ظهرتْ خلال الخمسينيات حتى نهايات الستينيات في الدول الأوروبية الشيوعية، أو تلك التي قاومت المد الشيوعي. يمكن دوماً إيجاد مباني متطابقة في أغلب شوارع المدن الكبيرة تقف بصلابة استعمارية معدّة لتكون عقلاً لإدارة المنطقة بأسرها.

حين أتجول بين الممرات بمحاذاة الأرفف المكتظة ليلاً ينتابني

شعور غامض بوجود عقل خفي في مكان ما، بين الظل والضوء. الشك الذي في داخلي كان أكثر عمقاً، بحيث بدأت اسمع أصوات الصراخ شخصياً وبشكل متزايد، في البدء ظننتُ بأنها ليس إلا الصرير المعهود للأرفف القديمة المثقلة بالمجلدات، لكنها كانت تصلني برتابة وانتظام وباستمرار، دفعني الشك للبحث عن مصدر الصوت، ضمن المكتبة قرابة ثلاثين من الممرات المتحركة، الأرفف الخشبية المدعومة بالألومونيوم، تحمل المجلدات الضخمة المرصوفة بعناية بالغة كلمسة فنية، تتخللها أشعة الشمس المتسللة من بين النوافذ العريضة بزجاج سميك، حين أتجول تاركاً النوافذ خلفي، كنت أرى الظلال الصادرة مني، تمتد عبر الممرات المواجهة للنوافذ كأنها خيال طفولي جامح من القرن التاسع عشر لإحدى المدارس الداخلية، فيما كانت الأضواء المتكسرة تسقط ببرودة على الأغلفة المرتبة بحسب الموضوع واللون والحجم. مطلقاً، لم أتجاوز سحر الضوء على الأغلفة الذي كان يدفعني للتأمل مطولاً.

تجاوزتُ أرفف التاريخ الليبي، كانت الروايات الروسية مرتبة على الرف التالي، فيما كانت المجلدات التي تتحدث عن سقوط الإمبراطورية الرومانية وانتهاء الرايخ الثالث مواجهة للتاريخ الليبي بمختلف عصوره المعتمة، لم يكن ذلك غريباً، فالتاريخ الليبي - بالنسبة لي - كان يبدو أشد غموضاً كمتاهة بورخيسية، بحيث كنت أحتاج دوماً لقراءة رواية روسية لفهم كل ذلك التعقيد المتعمد في النصوص الشعرية للتاريخ، نصوص تشيخوف القصيرة، سخرية بولغاكوف، كتابات تولستوي الأكثر شهرة.

في بلدتي الجنوبية، كنت رفيقاً لصديق يحمل تلك الكتب دوماً بطبعات قديمة لترجمات جيدة، علّمني الاعتماد عليها. ضمن المكتبة كان التصنيف المعقّد يبدو لي كجزء من تاريخي الشخصي، وهو تصنيف لاحظتُ مدى غرابته منذ الأسبوع الأول.

كان تصنيفاً أشبه بالذاكرة الشخصية، الماضي الخاص بي، تلك الأحلام المنسية، الطموحات السرية التي اقتنعتُ بأنها تتعدى قدراتي الذهنية والجسدية، الأشياء الصغيرة التي أضعتها، ذلك الحزن الطفيف الذي ينتابني كلما تذكرتُ، ذلك الحزن العارم الذي انتابني حين فقدتها لأول مرة، فقدن جزء من أرفف المكتبة، الفقدان.

قبل قرون وضع الشاعر الليبي كليماخوس أول مكتبة ليبية تهتم بالتاريخ الشعري، مهمتها جمع مادة أحلام لتميّز الشعب الليبي. طموحات صغيرة ظلت تنمو طوال العصور حتى وصلت للمراحل التي كنا فيها، مجموعات ذات نفوذ هائل تعمل على استخدام خاطئ للفكرة الأصيلة، بإنشاء دوائر تابعة للحكومات الاستبدادية، في حين هناك مجموعات متواضعة هدفها تنقية المكتبة من شهوة السيطرة المجنونة التي استبدت بها طوال العصور السابقة. بعض هؤلاء وضعوا مذكرات تشخيصية للمعضلة عُرفت في تاريخ المكتبة بالسير الروائية للتاريخ، إنها مذكرات شخصية كتبها أمناء سابقون للمكتبة وضعوا بصماتهم في نسختها المحررة.

من بين عتمة الأرفف والمجلدات. «أنجزتُ مذكراتي الشخصية – قال المكتباتي ذات مرة – إنها بصمتي».

كما خمنتْ لم يكن الأمر سهلاً!

«في بيروت ولدتْ هويتي - هكذا أخبرني في إحدى المراتْ - كان ذلك في خضمّ أحداث سياسية عاصفة تموج بها كل المنطقة: مظاهرات، اعتصامات، تجمعات حزبية، مظاهرات غاضبة، تجاذبات في كل بقعة وشارع، آنذاك كنت أحمل فوق كتفي رأساً يموج بتجاذبات أكثر قوة لم أكن اعرف ما أريد بالتحديد، كنتُ أعمى وسط تلك الموجة الصاخبة. ظل المتوسط صديقي الوحيد. لو أخبرني أحدهم بأنني سأعثر على نفسي يوماً، لكنتُ ضحكتُ منه بشدة. آنذاك لم أكن أعرف بأنني كنتُ تائهاً، كنت حين أخرج إلى الطرقات أفقد طريقي دوماً، حين يحادثني أحدهم لا أفهم مغزى كلماته، صرتُ اشك في كل النوايا البشرية، البحر كان الوحيد الذي يمنحني البهجة، المدينة دائماً ورائي، المدينة الصاخبة دوماً ورائي، التجمعات تصيبني بالغثيان، لكن ما كنت أعرفه هو انني لم أكن راغباً في البقاء وحيداً، كنت أفعل أي شيء كي لا أبقى وحيداً، وجدتُ نفسي في دوامة تناقضات رهيبة، الخوف والخواء والحاجة إلى فعل بطولي رهيب، أحياناً تكون نتائجها قاسية جداً، الغضب العنيف، القسوة البالغة والحسد الشديد، كانت المفردات بالنسبة لي مشاعر مختلفة عن العالم، من الذي حدّد مدى سوء تلك المشاعر الإنسانية، سألتُ نفسي مراراً، لماذا نحبس أنفسنا فيها، سألتُ مجدداً، لماذا نفعل ذلك؟ كانت تلك هي الفلسفة التي حكمتْ حياتي المشوقة خلال عشرينياتي، معرفة معنى الأشياء، الكلمات والأحداث.

لم أؤمن مطلقاً بشيء له علاقة بالماضي، كنتُ أتطلع إلى

حياة شجاعة، حياة جديدة، خالية من تلك المعاني الجاهزة، لاحقاً عرفتُ بأنها لا تعني شيئاً، إلا عند النفوس الميتة، من اخترع كلمة الحسد هو نفسه جرّب تلك المشاعر السلبية، لا شك بأنه حكم عليها بمنظوره الشخصي، لذا تطلعتُ إلى الجموع الغفيرة في شوارع بيروت ودمشق، حتى دون أن أعرف بوضوح. كنت أشعر تجاههم بالحسد، لديهم قضايا فعلية، لديهم القدرة على التجمّع الدائم، كانت الاعتصامات والمظاهرات الجامحة هي المساءلة الوجودية الفعلية، القوة الكاملة والمؤثرة، الصرخات الثورية، شعرتُ بأنني أعيش الحياة لأول مرة، تطلعتُ إليهم، شاعراً بأنني ولدتُ قبل زمني بسنوات كافية لمعرفة بأنني ولدتُ في بلد كان حياً، ولدتُ بعد مقتل عمر المختار بخمس سنوات، ولدتُ بعد تشتت القوة الفاعلة في البلاد، كانت الحياة السياسية جنحتْ نحو الانكسار السياسي، الضربات العسكرية الأخيرة انتهت إلى مشاعر عشائرية مكّنتْ من نمو الفطريات على القلوب الليبية.

في بيروت كان الوضع مختلفاً، كان القوميون العرب يجمحون بقوة، فيما أخذت الأساطيل الضخمة تقترب، الجيوش المصرية والسورية في تأهب حقيقي، الوحدة كانت كلمة مختلفة بعض الشيء، بدأت تكتسب معاني متناقضة في حياتي، لذا كانت دوماً على جانب الضئيل من ذاك الحراك السياسي. الهامش. كنت دوماً أتطلع إلى الأشياء بعين مختلفة، اكتب كلمات مختلفة، أسكن واقعاً مختلفاً. ذات مرة سألوا جيمس جويس: « ماذا فعلتْ خلال الحرب العالمية؟ فأجاب: كتبتُ يوليسيس، ماذا فعلت أنت؟»!. كانت إجابة

مقنعة جداً. خلال الخمسينيات كنت أبحث عن هويتي التي ظننتها المعادل المكافئ للوحدة التي كنت أشعر بها بشكل متزايد.

لسبب ما اعتقدتُ بأنني حين أجد هويتي فإنني لن أشعر بالوحدة مجدداً، لذا تبعتُ آنذاك القوميين العرب، ربما مثل الجميع، كنت اشعر بأنني في وسط حقيقي، أشعر بأكتاف الأصدقاء بجانبي، بالابتسامات إزاء وجودي معهم، بالحبر على اللافتات يعطر الأجواء اللبنانية بالكتب الضخمة التي يكتبها بعض أفضل الرجال فهماً، يمكن للإنسان أن يتيه في قومية غير قوميته لمجرد عدم رغبته في البقاء وحيداً. يمكن أن يتحمل كل شيء، إنما إن واجهته الوحدة مجدداً بسبب تلك القومية فإنه بلا شك سيعمل على تحطيمها. الشعور العميق بالصداقة دوماً ينتصر على الاختلافات القومية، بأن أحدهم يعتمد عليك لإنجاح ولو جزء يسير من العملية كلها. أعرف هذا جيداً، كنتُ أشارك في مباريات الملاكمة عبر موانئ المتوسط، فقط لأجل ذلك الشعور العميق. كنت أنتقل من إسكندرية إلى نابولي إلى بيروت، قبرص، اسطنبول، وهران، كازابلانكا لأجل مباريات الملاكمة. مطلقاً لم أكن أخجل من شيء، الحسد كان حتى من تلك الموانئ المرتبة بشكل فوضوي. أرسل قبضتي كما يجب، متأكداً بأن الملاكم مقابلي يفعل ذات الشيء. إنني أعيد تفسير كل شيء من تلك الصفات التي تحكَمتْ في تصرفاتي مؤخراً. هكذا قلتُ لأحدهم، لن أنسى أنني أعيد تفسير تلك الصفات، كنتُ وحيداً يخترقني البرد بشكل فظيع.

الملاكمة كانت أشبه برقصة معتمة بالنسبة لي، معركة حقيقية

للمتعة الذاتية. أركز انتباهي على الخصم، الذي أعرف بأنه يوليني ذات التركيز، لكل ما كنت أقدم عليه. أليس هذا جوهر كل شيء؟ الاهتمام؟ لقد لكمتُ كل شخص على طوال موانئ المتوسط كما يجب، أسقطتهم جميعاً بلكمات قوية، كما إنني تلقيت ضربات كسرتْ فكي، اقتلعتْ عدة ضروس، إنها ضريبة البقاء مع الناس وقد دفعتها مبتهجاً».

بالرغم من هذه الخيوط الهشة عرفتُ بأن أي حوار ما هو إلا حوار بظلال عدة، المواقف هي في الحقيقة مواقف واجهتْ الكثير من الآراء المتناقضة، ربما حين تعيش سبعين سنة بوعي كامل فإن تكرار المواقف بظروف مختلفة يسبب ولادة تلك الظلال الكثيفة، عند تذكّرها تباعاً. ظللتُ أكتشفها تباعاً، الواحدة بعد الأخرى، كأنها الدمى الروسية الأكثر تعقيداً، بدتْ لي بأنها فعلاً لا نهائية. كل سنة انتجت عدة سنين.

المكتبة الأسطورية التي حلمتُ بها ذات مرة كانت تبدو لي – في خيالي – أكثر فاعلية وتأثيراً من التي أنا في خضمّها. كان جزءاً من حياتي اليومية في المكتبة كما حددها لي المسنّ هو كتابة ملخصات عن بعض الكتب التي تتحدث عن التاريخ السياسي لشعوب الصحراء الكبرى، إنها ليستْ مجرد كتابات أو ملخصات لأحداث تاريخية ثم الاستمرار في كتابة الملخصات؛ كما إن الأمر ليس مبهجاً بالمرة، ما كنت لأستمر على هذا النحو أكثر من ذلك، لكنني كنت أواصل كتابة المقالات كل أسبوع، لسبب لم اعرفه قط، فعلتُ ذلك طوال عقد كامل. كل ليلة أسعى للعودة إلى الواقع المعيشي، كان يجب

عليّ معرفة ما يحدث حقيقة، التاريخ الفعلي بدل التوقعات الدائمة أو الكتابة عن مشاعر أناس قدماء لم نرهم أو أحلام إمبراطورية قديمة أو دعايات دينية بلا سند فعلي. كنت أرغب في ارتباط الحياة الحقيقية بارتباط جسدي أو ما شابهه. فكرت دوماً في الأسلوب الشخصي الأمثل من اجل الحصول على تفسيرات جيدة لتلك السطوة الروحية. ثمة أشياء كثيرة غامضة، كان يتوجب علي اكتشافها ببطء شديد. لا يمكن ذلك إلا بمعرفة ما كان يخفيه المسنّ المكتباتي، لأنني منذ اللحظة الأولى عرفت بأن وجودي هنا، ليس إلا نوعاً من المراقبة الدقيقة لكل تصرفاته، وإلا ما كان يتوجب علي أن أكون في هكذا قسم خاص بالأرشيفات التاريخية.

كان هدفي هو إيجاد سرد مشجّع للعودة الى المكتبات، إنما مع مرور الوقت بدأت أولوياتي تتغير، أهدافي راحتْ تتبدل فيما أخذتْ أرفف المكتبة تفرض سطوتها التاريخية على تفكيري، شخصية المسنّ نفسها كانتْ تبدو كشيء أسطوري معقد.

ضمن زوايا المكتبة وفي تصرفات المكتباتي، هناك تفاصيل شخصية ضائعة. فكرتُ بأن إيجاد تلك التفاصيل ضمن تلك الزوايا وفي التصرفات الشخصية، هدف حقيقي، لأي صحفي جيد. كانت المكتبة هادئة كالعادة، إلا من ذلك الصرير الخافت الناتج عن الأرفف المثقلة حتى ليبدو كأنه قادم بشكل متعمد. كنتُ أحياناً أجلس بإيمان كامل على طاولتي المكتظة بالأوراق والدفاتر مستمعاً لتلك الأصوات الخافتة والمتتالية، أتخيل بأن الكتب والمجلدات تتحرك ليلاً أو إنها تضج بالقصص التي تحتويها. المكتبة ليلاً مختلفة جداً كما تقول الشائعة الهابطة من هدأة ليلة. لسنوات

ظللتُ أعبر بخشوع مثل هذه الأرفف الثقيلة المكتظة.

في هذا القسم التاريخي من المكتبة أعرف كل ركن، كل رف، كل مجلد مع ذلك أجدني دائم الدهشة من الأطوار الغريبة التي تنتهجها الكتب الصامتة، لطالما كنت أشعر بهذه الغرابة المحيطة بالمكان، كمحراب مقدس. لا يمكن الاتكال على الطبيعة البادية لذلك المحراب الصامت والصاخب في آن. دائماً هناك قوى أخرى مختلفة تضج بين الأرفف المثقلة بالكتب، بالأرواح الميتة. ما كنتُ لأصدّق كل ذلك حتى رأيت ذات ليلة المسنّ يقرأ مجلداً، بدا لي ضخماً، مع الأيام عرفت بأنه جزء من دفاتره السرية، كل من يرتاد المكتبة يمتلك مثل هذه الدفاتر الشخصية، . كنت أعرف مدى سطوتها الروحية، مدى الحزن الذي تحتويه.

المكتبة الشخصية كما يسميها المكتباتي، تلك التي تحيط بجدران غرفته الخاصة، كانت جزءاً من مذكراته الضخمة، حين دخلتُ للمرة الأولى غرفته تلك، عبرتُ مذهولاً الأرفف المكتظة، مجلدات تمت إعادة تجليدها بأسلوب يترك بصمة شخصية، حروف مذهبة بارزة، مصطفة بعناية فائقة، ذات الطول، الحجم، الكتابات التي لم تنشر وتلك التي نُشرتْ، إنها ثروة شخصية تفوق كل ما تحتويه المكتبة خارج تلك الغرفة، مواضيع مختلفة، إنما محددة: الأوراق السرية للجمعيات الجغرافية الأوروبية، الزوايا السنوسية، أوراق القناصل الأوروبيين في طرابلس، حيواتهم، كتاباتهم المعتمة، مجلدات عن ولادة الدول الحديثة عقب الحروب والثورات، دراسات عن التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، تحول الدول النشيطة

إلى ديكتاتوريات خاملة، طبيعة الكلام لذوي النزعة الشمولية، البناء الهرمي في الديكتاتوريات الصغيرة، كسلاح فعال من أجل تحطيم الشعوب من الداخل، الإبـادات الجماعية. كانت تلك مواضيع دراسات قام بها على مدى خمسين سنة، . عيناه بدتا منهكتين فجأة، كأن تفكيري حول حواراته السابقة قد اشعره بالإنهاك.

«أنا أكتب لأعرف عمق الأشياء، لا يمكن معرفة عمقها إلا بالكتابة».

«هل يكون هذا السبب كافياً، تفسيراً لحياتك؟».

«لا يمكنني أن أجزم، فالتفكير العميق حول بعض الأشياء، لم يكن مجرد هدف، ربما الوسيلة الفعلية التي تجعلني مقتنعاً بأن الكتابة هي الفكرة الأكثر قيمة لتذكّر كل شيء».

«قبل مدة قرأت حديث شوبنهاور حول قوة الأفكار داخل الكلمات».

«تلك مسألة مرتبطة بالمعرفة الشخصية، حتى إنها تبدو باعثة على الجنون المرتبط بالكلمات، ربما من أجل خلق نص قصصي، أو فلسفة طموحة بالتحكم بالناس، تقديم الصورعندئذ يبدو دوماً أكثر غموضاً من كلمات تحاول الاكتفاء باحتواء الأفكار، كما إنها مهمة محدودة الأثر جداً زمنياً، مكانياً حتى من الناحية التخيلية. لكنني أعتقد بأن قوة الأفكار يمكن لها أن تتحول صوراً عبر الكلمات، الذاكرة وترتيب مختلف لزمن مختلف، مع ذلك يبقى كل شيء محدوداً بالزمن».

«ألا يُسبب ذلك التشتت بين الوسيلة والغاية، بافتراض الزمن المحدود؟».

«التشتت عموماً يلغي القيمة الفعلية للمعاني مثل الوسيلة والغاية، تبقى فقط ضرورة فهم اللحظة أثناء العمل اليومي، محاولات تحطيم الغموض، كسر الجليد، الرغبة في التواصل، إنها لا تكون وسيلة ولا تكون غاية، إنما فقط يمكن تفسير المسألة كلها بالتحدي وإرادة».

جاء هذا الحديث بعد عمل يومي شاق، استغربتُ مدى غموضه لاحقاً، مع ذكريات نورانية عن مدى سهولته ووضوحه خلال الحديث. المسنّ المكتباتي بعدها بساعة واحدة، مزاجياً بدا أقرب لشاب في العشرين، مليئاً بالطموح الشخصي، كما بدا اصغر مني بمرتين بابتسامة مشرقة كشفتْ عن أسنان ناصعة قوية ثم أطلق ضحكة بلا شك كانت لأسباب أخرى، فبعد هذه السنين، أدركتُ بأنه يتحدث عن أشياء وفي ذهنه روايات أخرى لأزمان مختلفة. يتحدث عن عشق غير مكتمل في مذكرات كازانتزاكي، فيما هو غارق ضمن ذكريات معتمة حول قصة عشق ولدتْ بدايات القرن المنصرم، قُبيل القصف الإيطالي لشوارع طرابلس.

لم أكن قادراً على فهم تلك الضحكات، لكنني مع الوقتْ بدأتُ افهم تلك التحولات المفاجئة في طبعه، كنتُ أقبض على مواضيعه عقب الضحكات ثم أبحث ضمن مذكراته الشخصية سراً، حين يكون غائباً لسبب ما، أكون داخل غرفته، أبحث في مذكراته. فعلتُ ذلك عقب إحدى الجلسات، عندما انتهينا من أحاديث متفرقة حول قصص مضحكة عن سقوط الزعماء، روى قصة قديمة عن سقوط احد رجال

الملك اثناء احدى الاجتماعات، داخل مطعم توسكاني في طرابلس. بعد مدة طويلة كنت أبحث عن سند لتلك الحادثة حين وجدتُ تلك القصة متفرقة ضمن عشرات الصفحات، مرقونة في أوراق ذات صفرة باهتة، ضمن ملفات مختلفة، إنما يوحّدها ملف واحد، لا شك بأنها مسودات ما قبل النشر، أو ما قبل التبيض الأخير، مع ذلك لم أجد النسخة النهائية من النص مطلقاً إلا بعد مدة طويلة، فوجدتُ الحادثة التي تحدث عنها المسنّ ممتزجة بشيء من السيرة الذاتية.

(3)

اجتماع غير رسمي داخل المطعم التوسكاني

القصة التي رويت في المطعم التوسكاني عام 195 - كانت عن رئيس الوزراء الليبي آنذاك، حين زار ولاية تكساس الأمريكية، بحثاً عن شركات للتنقيب عن البترول، أثناء المؤتمر الصحفي الذي أقيم لأجل ذلك تلقى السؤال التالي: ما الذي يجعلك تعتقد بوجود بترول في ليبيا؟. إذ ذاك أجاب رئيس الوزراء كأنه كان يتوقع سؤالاً كهذا: حسناً، أنتم قمتم بالتنقيب في العربية السعودية، حيث الشمس، الصحراء، الرمال والبدو، فوجدتم البترول، في ليبيا عندنا الشمس، الصحراء، الرمال كما عندنا البدو، لم يبق إلا البترول لنجده. الضحكة التي رنّت في تلك القاعة بولاية تكساس، كانت مشابهة بالتي رنّت في المطعم التوسكاني بطرابلس، حيث كانت الإضاءة تسقط ناعمة على الأكواب الكريستالية، الملاعق والسكاكين الفضية، التطريزات الذهبية للأقمشة التي تغطي الطاولات. خمس شخصيات شبه أسطورية، كانت جالسة على كراسي تلك الطاولات، أعين زرقاء، شعر معدني

بارد فوق الرؤوس الكبيرة المسؤولة عن المعضلات الكبرى، أظافر أصابعهم براقة، بدلات سوداء، أخرى رمادية مخططة، بربطات عنق نحيلة كرجال مكتب التحقيقات الفدرالية، الكلمات الهادئة تعقبها ضحكات ثملة بالنبيذ التوسكاني المعتق، الأجواء كانت شاعرية، موسيقى إيطالية تنساب برقة، الطباخ الإيطالي أعلن بأنه قدّم أفضل وجباته. لم أستغرق هكذا في الإبداع منذ أن غادر إيتليو تروتسي. الابتهاج واللذة، المشروب الناعم كالضوء، اللامع على الحواف السميكة للأكواب والأسطح البراقة في القاعة التي أخليت ليوم كامل لأجل هذا الاجتماع المفصلي. شركات تنقيب صغرى. شركات تنقيب كبرى. مندوبون أمريكان. طليان. إنكليز وفرنسيس. يحادثهم سلام مراد الصحفي السابق والمتحدث باسم شخصية مجهولة من أفراد العائلة الملكية الليبية، تدور اتهامات، تتداول بعض الأسماء، إنما التكلفة الباهظة لتلك القاعة كانت مكفولة، كلها، ربما وراءها أشخاص في المناصب العليا فعلاً، مكتب رئيس الوزراء أو أحد الوزراء القابعين في الظل، ربما الناظر الملكي نفسه، صاحب الطموح الكبير.

كان يجب التفاهم حول تلك الأشياء المتعلقة بالنسب والحصص. طلبات صغيرة أخرى. جشعة ربما، إنما لا بد منها لكي تشرق الشمس في الغد. الخواتم التي تلمع في يده، فضية، شبه متدين، ضحكته ليست عالية، كان زمناً قاسياً إنما الأمر روحي في النهاية، القدرة على الضحك، أعتاب الستين، قضى حتى الثلاثين طامحاً لكي يغدو صحفياً، معروفاً، نجح في نشر بعض المقالات

الجيدة في مختلف الصحف الأوروبية، يتحدث ثلاث لغات حية إلى جانب العربية والشركسية-شعبه المهجّر ومفردات كاملة من التيدغا، إنها ميزة يفاجئ بها بعض زوار الناظر الملكي حين يشرع في الحديث بتلك اللغة شبه السرية، ذات مرة تم الإعلان بأنه أحد المشاريع المهمة للحكومة الفاشستية في المستعمرة باعتباره الجيل الأول الذي ظهر تحت نظر الاستعماريين، ربما لا يزال كذلك، يفكر غالباً، بكونه رفيق الناظر الملكي الأقرب، المتحدث باسمه عند الشركات الوافدة، صاحب اللغة البراقة تنساب من لسانه العبارات الأنيقة التي تجعل الناس يقتنعون، هكذا يصفه الناظر الملكي، لا يود أن يتنازل عنه، التنازل الوحيد هو ما يجب أن يحدث في تلك الجلسة، الحصول على عمولات جيدة بنسب محترمة، كان الحديث هادئاً يدور حول الأنبذة التي تركها الاستعماريون، أقبية كاملة من الأنبذة الممتازة، يقال بأن هناك مخزناً كاملاً يمتلكه التوسكاني به قرابة الألف زجاجة، عمرها مئة سنة، كانت ضمن مقتنيات القناصل الأوروبيين في طرابلس، إنها بحوزة الطباخ التوسكاني، رفع المندوب الأمريكي كوبه ثم قال بفخر: «هكذا نقضي على البداوة في دولة أخرى-ابتسم ناظراً بمأسوية شبه مفتعلة إلى الضوء على كوبه الكريستالي ثم أضاف-: «إنها خسارة نوعاً ما، وداعاً للّيالي العربية، فلنستعد لاختفاء النخيل والمهاري والمواقد أمام الخيام في الليالي الصحراوية، الجمال بلا حدود».

«المهمة الأساسية هي جعل الحداثة طابعاً عاماً – قال الإنكليزي نصف ثمل – استقرار شركاتنا في الصحاري، التنقيب، البحث عن الذهب الأسود، لا بد أن يسبقه طموح شعبي، توقّعات جيدة، المزاج

العام الداعم والمشجع، تلك هي الميزة الأساسية، أن يعرف الناس بوجود مستقبل جيد ينتظرهم هنا».

عندها قال الإيطالي–صاحب شركة صغيرة: «هناك قصة – قام من كرسيه حاملاً كوبه اللامع – يحكي مندوب احدى الشركات بأنه نزل ضيفاً كريماً على أحد الليبيين في الصحراء، الكرماء المشهورين بحسن الضيافة، استضاف مندوبنا بشكل حسن، حتى إنه وضع علفة جيدة لسيارته الجيب أمام الخيمة».

نكتة جيدة قابلها الجميع بالضحك، في حين جلس الإيطالي، أضطر لأن يسمع الجواب الذي بدا هادئاً، غاضباً، متناقضاً بشكل مدهش: «إنها أسطورة – قال سلام مراد الليبي – الإيطاليون جعلوا الشعب الليبي مثقفاً جداً فيما يخص الآليات». ضوء كالدمعة، قطرة نبيذ أفلتتْ من الإيطالي الطيب، تركتْ بقعة حمراء على القماش المطرز فيما كان التوسكاني العجوز يضحك من وراء الحاجز الرقيق، قال لمن معه: «الليبي لا ينسى، الإيطالي لا ينسى، إنها مصيبة، إنها معضلة وصفة مستعصية».

«هذا جزء من ميراث كبير – أكد الأمريكي – يجب إلغاؤه، الصورة الخاطئة، ثقافة الكراهية، الأوروبيون يجب أن يدركوا مدى ضرورة خلق صورة جيدة عن أنفسهم، لا يمكن أن تخرج من الباب المحطم غازياً ثم تعود صديقاً من النافذة، لا يمكن، يجب أن يقتنع الشعب الليبي بكم، أفضل أسلوب هو احترام ثقافته».

الإيطالي بدا حانقاً، لكنها وجبة جيدة، لجعل الأرواح تتآلف، لذا قال الإيطالي مقتنعاً: «لا شك إن الاحترام بداية كل شيء، إنما

لا يمكن حدوث هذا إلا بمساعدة الملك نفسه، إن له كلمة مسموعة بين الشعب، خطاب واحد يساعد كثيراً».

الشعور بالقوة والسيطرة، كأنه رجلنا في العاصمة، تطلّع إلى أطراف كمه، كانت بيضاء تماماً كجناحي نورس نظيف وأنيق، نورس تعلّم أن يغدو أرستقراطياً، بالرغم كرهه للأمر إلا أنه يتوجب أن يبحث عن تلك الثغرات، التصدعات في الجدران، ثم يشرع في التركيز عليها، ليجعلها أكثر اتساعاً وتشققاً، نبرته لا بد كانت كالكابوس بالنسبة للإيطالي: «بالنسبة للملك، لا يمكنني الإدعاء بأنه سيفعل شيئاً، لكنني أدرك جيداً من خلال بعض المعارف المحيطين بالملك بأن ما حدث هو الآتي: يتوجب على الشركات أن تعمل على تحسين صورة العالم بالنسبة للمواطن الليبي، بالتالي تتعزز مكانة الملك وصورته الشخصية التي حاول البعض النيل منها خلال فترات طويلة من النضال ضد الاستعمار الإيطالي، أليس لأجل هذا تم إعفاؤكم من الجمارك لكي يجد ما يساعد به شعبه؟».

«بالنسبة للأمريكان – لفت الأمريكي نظر الجميع حول الطاولة – قدّمت المساعدات الدائمة والجيدة للشعب الليبي طوال فترة صعبة، حكومتنا لم تكن تطمع بنيل أي شيء بالمقابل».

كانت تلك جرعة جيدة، استحق عليها الأمريكي رشفة كبيرة من النبيذ، حين قدّم له النادل اليوناني تلك الجولة، بأناقة مثيرة للأعصاب بطريقة طفولية، كان شعوره الغامض بأنه طفل مرة أخرى، يزداد قوة، هذا يكتم على صدره، يفقده الشعور بقدرته على العيش حراً كنورس بحري، انقطاع الحلم، يطالع لمعان الضوء على الأشياء فوق الطاولة،

إلى الأزرار اللامعة في أكمام أصدقائه الجائعين للصفقات الكبيرة، يريدونها على طبق ذهبي دون مقابل، مهمته إيجاد الظروف العكسية، انتزاع اللقمة من فم الذئب، كما يقول الطليان كل يوم مئات المرات، من فم الذئب، لكي يؤكدوا بأنهم بخير.

«لهذا الشعب الأمريكي محبوب في كل مكان - قال سلام فيما هو يزداد شعوراً بالضيق وتلاشى المنطق في ذهنه - طالما بقيت حكومتها على هذا النحو، تساعد دون طلب إتاوات، تدرك قيمة تاريخ الآخرين، حقوق الناس أعلى وأكثر أهمية، طلب التنازل عن حقوق ما لأنها ساعدت في الأوقات الأزمات، تضع في الأذهان شخصية أمريكي كما في الكوخ العم توم، أنا لم أكمل قراءة الكتاب، البشاعة هي دوماً في نكران حقوق الآخرين، لدواعي مضللة».

الخسارة دوماً هي في الأحاديث المرسلة بلا ضبط، فلا يمكن توقّع ما يقوله الآخرون مثلاً، عندها تغدو التقاليد الدبلوماسية مسألة معقدة جداً، لم يكونوا دبلوماسيين، لكن إحساساً طاغياً بذلك يجتاحهم لولا الأطباق التوسكانية على الطاولة مع النبيذ، لولا تلك العبارة: لقاء غير رسمي، التي هي عنوان الجلسة، لظنوا بأنهم يحادثون مسؤولاً في الحكومة، وزيراً ربماً، الأمريكي قال متوخياً الحذر، أن يفقد ما كان يمتلكه أصلاً، كما يفعل الفرنسي الجالس بصمت، متأكداً من أن موقفه أقوى من موقف الحكومة الليبية، فالقبائل الجنوبية تقف في صفه، بل تستند على فرنسا لنيل حقوقها من الغيلان في الشمال، ضربة معلم تلك التي حققتها فرنسا، إنما تصرّف رجالات هذه الدولة الجديدة يوحي بالخطر الوشيك القادم، فقدان تلك التوقعات

المرسومة للبلاد، عدم قدرة السيطرة على سياسييها، إنهم يقارنون أنفسهم بالدول القائمة منذ زمن طويل، يتعاملون كأنهم المنتصرون في الحروب الكبرى، كأنهم انتزعوا استقلالهم بأيديهم، الاستقلال الذي يرى بعض أكبر مسؤوليهم بأنه متعجل، ينبغي مراجعته في تصويت آخر، الأفكار التي طافت في ذهن الأمريكي أفصح عنها لاحقاً مع الفرنسي، الذي شرح أسلوب التعامل مع شخصيات مثل التي تحكم ليبيا، القدرة على التحكّم بمصادر خوفهم، إعادة الماضي أمام أعينهم. الليبيون يخشون من الماضي خشية الأمريكان من الشيوعية. الماضي هو بمثابة الشيوعية الليبية: العودة إلى التشرد، القتال، الجوع والتشتت، واللا سلام. فرنسا تعرف كيف تتعامل مع هذا، لذا لن تكون خاسرة مطلقاً في مشوارها. «لا يمكن – هتف الأمريكي ضارباً بيده بحسم على الطاولة، كأنّه يقلد زعيماً للعصابة في غابات أمريكا اللاتينية – لا يمكن لأحد أن يطلب تنازلاً عن الحقوق – لانت نبرته بعد ذلك لتصل حدود الاستعطاف في تمثيل باهر – إنما فقط مساعدة بالمقابل حتى يكون بوسعنا العمل بشكل جيد».وافق الإيطالي فوراً، مدافعاً عن فكرته: «بالفعل، هذا صحيح»

«لأجل هذا نحن هنا، إيجاد الأسلوب الأمثل لتنمية البلاد».

قال سلام.

«لن يكون هذا صعباً – على سبيل المزاح، في مشاركة مفاجئة أعلنها الفرنسي – السماح بفتح الأسواق والتنقل السهل عبر الحدود، وكالات تجارية أكثر، فروع، فرص أفضل، استثمار شركات بلا تعقيد أو تقييد، هذا كفيل بخلق الكثير من فرص العمل».

ضربة معلم!

«كل ذلك لا يمكن أن ينجح دون إقناع الناس بحسن النوايا - قال سلام متمسكاً بالضغط الوحيد الذي يمتلكه إزاء تمسّك تلك الدول بحقوقها من الانتصار لذا قال-: فالاستعمار الإيطالي كان يعرض ذات الوعود، إنما لم يكن الشعب ليرضى مطلقاً، الليبيون يهتمون بأسلوب الدعوة للولائم، أكثر من الوليمة نفسها».

«هذا طبيعي تجده في كثير من الدول، وجدنا مثله في مصر، لبنان والعربية السعودية بالمناسبة نحن ننجح هناك باستمرار».

هتف الأمريكي بحماس.

فرد سلام: «أنت بهذا لا ترى خصوصية للشعب الليبي».

«الليبيون يفكرون كثيراً في الماضي، أحياناً يجب التفكير أكثر في المكاسب».

لخّص الإيطالي كل المشكلة.

«ربما لأن الماضي نفسه جاء بـذات الأسلوب المتعلق بالمكاسب».

هكذا رد سلام.

«لكننا لسنا مصرف روما آخر».

أضاء الإيطالي نقطة مهمة.

«كما إننا لسنا بازاراً شرقياً - حدة الصوت جعلت الطاولة

ترتعش - قبل كل شيء يجب أن تكون النوايا الحسنة على الطاولة، طاولة كل مواطن ليبي، حين تدخلون الصحراء لا بد أن يكون هناك مشروع واحد على الأقل لفائدة الناس - لحظة هدوء ثم - سمعتُ الملك نفسه يتحدث عن هذا لإعطاء الموافقة على العمل، كما إنكم تعرفون جيداً التباشير الممتازة بوجود البترول الأكيد، الخاسر الوحيد من عدم الموافقة هو أنتم حضرات السادة».

كانت تلك الإضاءة المفاجئة أكثر تنويراً للموضوع، نفاذ الصبر، اختفاء الدبلوماسية، مطلقاً لم يكن هكذا من قبل حتى إنه شرب جرعة كبيرة من كوبه، دون الاهتمام بأناقة تحركاته السابقة، النورس الأنيق يغرق ريش جناحيه في الوحل.

«لندع مساءلة الخسارات جانباً، إنها ليست طرحاً مقبولاً أو محتملاً، لنتحدث عن المكاسب الجيدة، ما هي طبيعة المشاريع مثلاً؟».

هكذا سأل الإنكليزي بهدوء.

«الأمر بسيط - أجاب سلام، متجاهلاً إحساسه الأكثر بالضيق - إن دخلتم إلى الصحراء أتركوا علامة».

«علامة؟».

تساءل أحدهم.

«مشروع زراعي مثلاً».

وضح سلام.

«مشروع زراعي؟».

نبرة تساؤل من ذات الشخص مع اختفاء الأضواء واللمعان.

«يعرف المواطن عندها بأنكم هنا لفعل أكثر مقدسات الدين - قال سلام محاولاً التقاط أنفاسه كأنه سيعلن عن فائز ما - قنابلكم التي أسقطتْ الأشجار خلال حروبكم، تعيد أيديكم وأموالكم زراعتها مجدداً، فالوصية الأخيرة قبل يوم القيامة، هي توجب أن يقوم المسلم بالزراعة».

قال الأمريكي: «لا يبدو الأمر صعباً».

«بالنوايا الحسنة - قال وهو يهم بالوقوف - لا شيء سيكون صعباً، لقد فرغتْ أقداحكم، النبيذ التوسكاني جيد، سأفتح زجاجة أخرى».

كانت الزجاجة تكلف مئتي دولار، رئيس الوزراء الليبي كان راتبه مائة وخمسين دولاراً. طلبوا منه الحديث عن الحصص والعمولات فتحدث عن الشعب والاحتياجات. قام من مقعده، لا شيء جديد، القديم نفسه، كالنورس المقيّد، شيء ما يشده إلى مقعده، أحدهم أثنى على مهارته من قبل، أي مهارة تلك التي يجب الثناء عليها، أحس دوماً بأن مجرد الحديث قد يجعل منه محامياً ناجحاً، إنما ليس كما يدّعون، فهو حتى ليس بصحفي جيد، مقالة واحدة طويلة، قصة نادرة كتبها لأجل أسباب لم تكن صحفية خالصة، شيء ما يشده، لكنه قاوم بصمت، هل أغمض عينيه؟ إحساس غامض بالتيه اللا جدوى، ذات مرة وجد خريطة إلى الكنز المدفون، اتضح فيما بعد بأنها ليستْ إلا

خريطة لأجل التيه الأبدي، خريطة عكس الخرائط لم تأخذه إلى أي مكان حقيقي أو فعلي.

كان يستمع إلى حديث مبهم عن المشاريع الحقيقية المزعومة، كأنه غطس في الماء فجأة، أحس بخطواته الطائشة، كفقاعات هوائية، ثقل بزته الأنيقة، حين مد يده إلى رباط العنق، حاول إرخاء الربطة قليلاً ثم حمل كوباً في اتجاهه إلى المطبخ، عينان جليدتيان ظهرتا له من وراء احدى الستائر كانتا تراقبانه، لطالما فعلت تلك الأعين الجليدية أكثر من ذلك، الأنوف المدببة والمعقوفة. الذقون المعوجة وتلك الحليقة التي تشبه كعوب العذارى. لم يكن يحتمل تلك الأعين. لكنه دوماً كان مضطراً إلى التحديق فيها. الضيق. قبل سنوات، كان الأمر مريحاً. عيناه الجليديتيان. القلب الشجاع في صدره حين كان ينبض لأجل الحياة. أراد أن يستعيد ذلك النبض لأجل الحياة. صاحب العينين أشار إليه فيما هو يفقد السيطرة تماماً كدب قطبي يحتضر.

حين أحس بأنه يتجه ناحية، طاولة أخرى، رؤساء الشركات ظنوا بأنه أراد شيئاً ما، لكنهم شكّوا قليلاً في تحركاته البطيئة. حين بدأ يجلس على كراسي الطاولات الأخرى ثم يقوم مجدداً حاملاً الأكواب الفارغة، باتجاه النافذة المفتوحة، قبل أن يستفيقوا من افتراضاتهم الخاطئة، كان الصحفي المخضرم قد سقط على وجهه فوق إحدى الطاولات، مغشياً عليه. تكسرت الأكواب، لكنها لم تكف عن اللمعان بإشراق.

سمع صوت تكسّر الجليد ببطء كالتصدع القديم، حين انهار مع تلك الكلمات المبهمة، كلمات طائشة ثم شاهد الأعين الجليدية،

مع امتداد السقف المتصل بالنوافذ العريضة الجانبية المغزوة بالنجوم البعيدة، فكّر بأن الجمال بلا حدود، الأكواب الكريستالية، تكسرت مع الأطباق الفضية والملاعق اللامعة بالضوء الشارد.

ابتسم مردداً بصوت شبه هامس مليء بالإيمان: «الجمال بلا حدود، الجمال بلا حدود». إنها فوق، هناك! الجمال على السقف الزاهي بالزينة، شاهد خطوط طفولته، مع اللمعان الذهبي للضوء الذي بدا ندياً كابتسامة مشرقة، جعلته يعيد تذكّر ماضيه، احدى أجمل أيام حياته مبتسماً، مقدّراً تلك المنحة الربانية.

الذكريات التي لا تموت!

بدت جميلة.

(4)

ظلال ما بعد العشق

أكتوبر 1911 – طرابلس الغرب من بين أقدام التجار ورواد السوق والمارة الطرابلسيين، انطلق طفلان يركضان بابتهاج، ضحكاتهما تسبق جسديهما الصغيرين، من ورائهما، صدى تلك الضحكات يصطدم بالأواني الفضية والنحاسية، لينزلق كبتلات الأزهار الصباحية على الأقمشة الفارسية المزينة بالقصص العجيبة عن العشق، توهجتْ ابتسامات الرضا على وجوه المسنّين الجالسين أمام محالهم بكسل لذيذ، يقرؤون الأوردة ودلائل الخيرات بانتظار الرزق الحلال، بحيث تبدو كأنها تخط رزنامة أيامهم البطيئة ضمن تلك التجاعيد المكتظة، لا تنفرج إلا بضحكاتهما اليومية وهما يركضان إلى مكتبة التقسيم الأول الصغيرة عند نهاية احدى الأزقة، وهما يطرقان أقدامهما الصغيرة على الأرضية الطينية الصلبة التي تغدو أثناء فترات المطر أوحالاً لا تستطيع حتى العربات التي تجرها الخيول من تخطيها إلا بصعوبة، إنما كل صباح من تلك الأصباح الطرابلسية، كانا يستمتعان بالركض بين الأزقة غير مباليين، بالمطر أو بالأوحال، لا يفوتان يوماً من دون

زيارة العجوز المالطية صاحبة المكتبة الجالسة للأبد في زاوية شبه معتمة، محدقة في فراغ حياتها، يسلمان عليها، يقبّلان يدها اليمنى كأنها احدى حاكمات مدينة طرابلس الواقفة بعنجهية واضحة أمام المتوسط، ثم يقدمان لها، قطع الخبز الساخنة التي تم أعدادها جيداً في أفران احدى البيوت، تبتسم المالطية وهي تدعو لهما بالبركات الدائمة، عينيها تسيلان دموعاً شفافة سرعان ما تتحول للعتمة، دائماً ما تفعل ذلك أثناء لحظات هدوئها التام. يعرفان بأنها تحلم بالمسنّ المالطي الذي مات قبل سنة كاملة، أثناء عتمة الكسوف الشمسي.

كان أكثر منها حباً لهما، يحتضنهما كأنهما حفيديه الفعليين، يقدم لهما الحلوى والمعجنات الشرقية التي كان يحتفظ بها دوماً في جراره الكثيرة بالقرب من أرفف الكتب الممتدة، إنما المالطية المسنّة، ظلتْ وحيدة، لا تفعل إلا التفكير العميق، ذات مرة سمعاها تغني طلباً للموت، أغاني حزينة.

آنذاك قررا أن يأتيا إليها كل صباح بالطعام والشراب ثم يجلسان معها، طوال اليوم بعد الدوام المدرسي، أما في فترات العطل فكانت يقضيان معها طوال اليوم حتى غروب الشمس، حين يلتحق بهما بركة ابن حارس القنصلية، بحثاً عنهما.

قبل الغروب بقليل، قالت إليزا:

«والدي وجد كتاباً قديماً عن طرابلس، كتبته الانجليزية مثلي».

«حقاً؟ أهو ممتع».

سأل سلام وهو يركل الحجارة.

«آه ممتع وفريد، تمنيتُ أن أصبح كاتبة يوماً ما، لكنني لا أحب تلك الكتب القديمة المهملة، إنها تجعلنا نبدو أكثر قدماً».

قالت إليزا بخيبة وهي تلتفت إلى سلام.

«الكتب المهملة في المكتبات، تغدو ممتعة أكثر بمرور الزمن – قال سلام ثم أضاف – هذا ما أخبرني به المالطي ذات مرة، أمر لن نفهمه إلا حين نكبر».

«بضبط – قالت إليزا – لا أعرف ما تفكر فيه أنت، أنا لا أريد أن أكبر».

قالت هذا وهي تستند الى احدى الجدران الطينية للمكتبة، شعرها الأحمر الايرلندي جعلها تتماهى مع الغروب الهادئ الزاحف من الأفق باتجاه المدينة المسالمة. كان سلام ينظر إليها باهتمام، بدتْ له لطيفة كطيف طفلة المالطي التي حلم بها.

«لا يمكننا أن نكبر إذن».

قال بايمان طفولي.

«أنا لا أريد – قالت إليزا ثم ضربته على كتفه وأكدتْ – لا أريد».

كانت تكَشر عن أسنانها اللبنية الناصعة، لم تؤلمه الضربة، لذا ضحك قائلاً:

«نبقى صغاراً إلى الأبد».

ضحكا معاً ثم أمسكته من يده إلى داخل أعماق المكتبة التي أخذتْ تعتّم على نحو كثيف، جلسا عند احدى الأرفف ثم شرعا

يستمعان للعجوز المالطية الهادئة التي بدأت تغني وتردد أغاني مالطية حزينة عن الوحدة، حين همستْ له إليزا: «إنها تغني له».

تلاقينا طفلين، رمال الشاطئ ناصعة

ركضنا ضاحكين، ليتنا بقينا طفلين

استمعا بإرهاف ثم قالت مبتسمة:

«نسيتْ وجودنا».

«لم تنس، إنها لم تعد ترى أحداً منذ مات الجد جورجيوس».

«أنت تعرف».

«أظنها محزنة، تعرفين أيضاً تلك القصائد».

«إنها جميلة».

«إنها جميلة لكنها محزنة».

«محزنة».

كانا جاثمين بين الكتب المكدّسة التي لم تُحرك منذ زمن، رائحة عتيقة تتلاشى ثم تزداد قوة، كأن هناك أرواحاً تحف حول المكان، تعيد ترتيبه باستمرار. قبل سنوات قليلة كمن لوحده ليلاً، بحثاً عن مجلّد قديم لأجل المسنّ المالطي، الذي وهنت عيناه، في تلك الليلة أحس بأن هناك شخصاً يراقبه، كان آنذاك يعرف بأن المالطي المسنّ خارج المكتبة مع زوجته، يتسامران بأحاديث الطفولة، حين التفت شاهد فتاة بملابس ناصعة - يتذكر هذه الحادثة جيداً - أحس بسببها

بالدفء، أخذتْ تغني بهدوء كأنها لا تشعر بوجوده، لم يُدرك جيداً ما حدث أمامه، ثم عرف بأنها شبح لكنه لم يخف، حين خرج بصمتْ، حاول إخبار المسنّ بما شاهد، لكنه فضل الصمتْ، هل كان في الثامنة؟ بعدها بسنوات قليلة، حين توفي المسنّ شاهده هو الآخر ضمن أحلامه برفقة تلك الفتاة التي لم يرها مرة أخرى طوال سنين حياته الأولى. كانا مبتهجين معاً، في الحلم أخبره المسنّ قائلاً: «أنظر يا سلام – قال وهو يشير للفتاة التي كانت بذات الملامح الشاحبة والملابس الناصعة–إنها ابنتي، أليست صغيرتي جميلة؟».

كانتْ جميلة، جمالها بلا حدود، مهيبة.

حين كان كامناً مع إليزا مع انسياب الأغاني، تطلعّ إليها بهدوء فأحس بالدفء المفاجئ، لم يعرف لما لكنه مد يده إلى خصلات الحمراء المسدلة أمام وجهها ثم أزاحها بهدوء، كانت إليزا تتطلع بعينين ليستا كعينيها، مليئتين باللطف والدموع.

ركضنا ضاحكين

ليتنا بقينا طفلين

استمعا أكثر للأغنية، كانت إليزا تزداد لطفاً. المكتبة تزداد عتمة، دموع في عينيها تزداد لمعاناً. حين انسابت خيوطاً نقية، لم تمسح دموعها ولا حتى ابتسامتها اللطيفة. حين قالت له: «حلمتُ بأنني كبرتُ – تطلعتْ إليه مضيفة – كبرتُ وصرتُ مثل العجوز المالطية». عندها تطلّع إليها سلام، أراد أن يخبرها بأنه أيضاً حلم بفتاة غير موجودة، ابنة المالطي، وإنها مجرد أحلام ليستْ حقيقية، تخيفنا

لأنها كذلك، لكنه فضّل الصمتْ والتطلع إليها مزيحاً خصلات شعرها الأصهب بين المجلدات المعتمة داخل المكتبة التي بدتْ عالما غامقاً ثقيلاً يجثم هناك في طيات العتمة كالطيف، مراقباً كل شيء في الكون، أقل دقائق الحياة في المدينة، كأنها نابعة من تلك المكتبة من بين صفحات تلك المجلدات المرتبة على نحو لا يكمن فهمه. حين يعيد التفكير حولها. بعد سنوات طويلة من الوحدة، وجد الأمر غريباً. كأنها كانت مرتبة على نحو عشوائي، إنما لا يزال يتذكر نظامها البسيط، الهادئ، لو دعتْ الضرورة لأن يعيد ترتيبها، لأعادها بالضبط كما كانتْ، الكتب المنتصبة، الكتب المضطجعة، تلك المهملة، تلك التي عليها طبقات الغبار بذات الألوان المعتمة، البنية، الوردية.

«أتعرف؟ – تساءلتْ إليزا ببهجة مفاجئة ثم أعلنت مقترحة بحماس – لم لا نكون طفلين كما كانا». ثم أشارتْ إلى المالطية الجالسة بهدوء على كرسي مغطى بالأقمشة، كان اقتراحاً وافق عليه سلام بهزة رأس بدتْ بلهاء، ابتسمت ثم قامتْ باتجاه المالطية التي كفتْ عن الغناء، مستسلمة للنوم، حين اقتربا منها انتبهتْ ثم نادتْ باسم زوجها جورجيوس.

«نحن جدتي».

قالتْ إليزا وهي تمسك بيدها.

غمغمتْ المسنّة بكلمات غير مفهومة، لكنها توحي بخيبة أملها قبل أن تتماسك.

«جدتي – قالتْ إليزا بنبرة هادئة – كيف كنتما أنت والجد، حين كنتما صغيرين».

تطلعت المسنّة المالطية نحو الفراغ، ثم ابتسمتْ:

«هل سمعتِ أغنيتي – حين أجابتها إليزا بالإيجاب قالت–: إنه زمن بعيد يا ابنتي، بعيد».

«كنتِ تغنين عنه».

هزتْ رأسها بهدوء.

«نود أن نعرف، جدتي».

جلستْ بالقرب منها، فيما ظل سلام واقفاً على مبعدة مستنداً الى الرف.

«كنا صغاراً – قالت المسنّة – أنا وهو مع أطفال آخرين، مثلكما تماماً، بأعين مشرقة، أهالينا لا حديث لهما إلا عن الحروب، في حين كنا نخرج راكضين إلى السهوب، الأزقة، الشواطئ ذات الرمال الناعمة، نختبئ بين الأحراش، المزارع، لا أعرف لأي سبب، لكنني كنت أمسك بيد جورجيوس الصغير–جورجي من دون الآخرين، كان أصغر الجميع، حتى إنه أصغر مني جسدياً، كما كان أصغر مني بأربعة أشهر. كنت أدافع عنه ضد الآخرين، الصبية الذين يتحرشون بنا، كنت دوماً أدافع عنه حين أتذكر الآن، لا أرى إلا عينيه الصغيرتين الغاضبتين».

«في احدى المرات – ابتسمتْ المالطية ثم قالتْ مضيفة – أوقفنا

صبي تركي، ابن أحد الضباط، كان جميع من في المدينة يتجنب الاحتكاك به، الكبار قبل الصغار، كان شقياً بدأ يضايقني - تزداد ابتسامتها المليئة بالإيمان، حين أضافتْ بلغتها التركية الهادئة - عندها تدخل جورجي، اشتبكا بقوة أمامي حتى تلك اللحظة لم أره يقاتل أحداً، في مشاجرته الأولى تورط مع أكثر صبي مزعج في الأحياء بسببي، لأجلي. كان محباً للكتب مثل والده، لا يفهم إلا في القصص العشق الفارسية، لا يتحدث إلا عن والده ووالدته عن الرحلات التي سيقوم بها حين يكبر. في ذلك اليوم كان شخصاً آخر، ألقى بالفتي التركي أرضاً أمام بهجة جميع صبية الحي، عرباً وأتراكاً، انجليزاً، مالطين، يونانيين، جميعنا كنا مبتهجين من يومها أحسست بارتباط خاص به، لم نفترق من يومها قط، حين بلغنا العشرين معاً تزوجنا».

كانت ابتسامتها تبدو مشرقة، كأنها نفضتْ عنها الأحزان أو إن ما لم تتحدث عنه أكثر من كل تلك القصص التي يمكن تخيّلها، قبلها بسنوات حكى له المالطي عن أحلام طفولته، السفر بعيداً إلى حيث الأمم المختلفة في أحراش أفريقيا، أخبره عن الرحالة الأوروبيين، العرب، اليونانيين القدماء، تلك القصص التي سمعها منه عن الطفل المالطي الذي عبر الصحراء، بحثاً عن الممالك السرية، الطفل الذي يتحدث لغة السلطانات المجهولة، يُسيّر الجيوش، يجلس في خيام القادة الألمان، البلجيك والفرنسيس والإنكليز، يتحدث عن السير الذاتية لفرسان مالطا الذين حكموا طرابلس قبل قرون طويلة وأعينهم على الأعماق المجهولة لليبيا، الممالك الضائعة التي كانت تنافس روما بهاء وروعة، كان الطفل المالطي لا يكف عن الأحلام. كان

يردد بأنه خلال طفولته الأولى كان يود أن يغدو صياداً للأسود في أعماق المجاهل الأفريقية.

«كان شجاعاً – قالت المالطية وهي تمسح دموعها المعتمة كذكرياتها – شجاعاً كأجدادنا القدماء، شعره الغامق كنبيل من فرسان مالطا القدماء، عيناه المعتمتان الغامضتان، بدا كروماني حقيقي تلك المرة».

بالرغم من أنهما لم يتخيلا المسنّ المالطي بشعر أسود، فقد كان شعره الذي يعرفان، أبيضاً كمسحوق الملح المجلوب من الدواخل، بالرغم من عينيه المعتمتين كمغارتين، كان محباً للكتب والمكتبات السرية في طرابلس، دائم الحديث عن التاريخ، الآداب، الأديان والجغرافيا، لا يتحدث إلا قليلاً عن طفولته، إلا إن حكاياته البطولية أعجبتهما، حتى إن سلام اقترب من المالطية كأنه ينهي استماعه لحكاية قديمة بدأت قبل قرون، طفل مالطي يغادر شواطئ طرابلس باتجاه الجنوب، يبحث عن الممالك الضائعة من الخرائط الكبرى، معتمداً على معلومات مكتبته التي جمعها أجداده، في احدى المرات كان المسنّ أخبره عن تلك المكتبة السرية!

كان يستمع إليه بصمتْ في احدى ليالي الشتاء، حين تركه والده يقضي ليلته في المكتبة، ينظمها مع المسنّ، كانْ في العاشرة، قبل أن يتوفى المسنّ المكتباتي بأشهر أخبره عن المكتبة.

«هناك في الجنوب – أوضح المالطي – قبل الفترة التي جاء خلالها هاينريش بارث الكاتب والرحالة الألماني، بوقت طويل

تم نقل مكتبة قديمة، من روما إلى أعماق السلطانات الصحراوية، لحفظها بعيداً عن متناول الأمم الأوروبية التي أخذت تفقد رغبتها في الواقع الحقيقي، بحثاً عن وقائع مختلفة، أشبه بالظلال مقارنة مع التاريخ الحقيقي، تلك المكتبة كانت الأصلية، أي مكتبة أخرى أشبه بالظلال المتفرعة منها. كنت أحلم بالبحث عن تلك المكتبة».

هكذا قال المسنّ المالطي، آنذاك. الفتى الطرابلسي سلام، كان شقياً، إنما ذكياً، مشمولاً بعناية القناصل، المدرسين حتى في القلعة يمتلك أنصاراً بالرغم من صغر سنه، إلا إن مهامه المستقبلية بدتْ واضحة جداً، كابن لتاجر وأحد وجهاء المخلصين للأتراك، أيضاً كصاحب نفوذ كبير في الدولة العلية، أما الفتاة فهي الإبنة الأولى لمدرّس إنجليزي بمهمات ضبابية داخل القنصلية الإنكليزية، تدعى إليزابيث لكن الجميع يدعونها بإليزا الصغيرة. كانا يبدوان كقطين سياميين، يعبران بنشاط دروب الأسواق والأزقة كل صباح مخترقين محال تجارية مختلفة، عروض باعة الأقمشة المجلوبة من بلاد الفارس والهند، والصبيان ذوي الأعين البلهاء، الراكضين ضمن مساحات الأسواق والآخرين المعروضين تحت الشمس ببشرتهم الأبنوسية المعتمة واللامعة بعرق ماسي، المجلوبين من أعماق غابات الأفريقية المجهولة، بنظراتهم الساهمة.

بالرغم من حملات العقاب من قبل الانكليز ضد ذلك النوع من التجارة الا أنها كانت لا تزال تظهر في بعض أسواق طرابلس، إلى جانب الحيوانات الصغيرة الموثوقة، بدت الببغاوات زاهية الألوان، النمور المخططة الصغيرة المفعمة بالنشاط، بجوار النمور الكبيرة

الوقورة المتمددة بكسل الوزراء الطرابلسيين، فيما يحاول بعض الصبية إثارتها وإغضابها بحركاتهم البهلوانية، لكنهم لا ينجحون إلا في إثارة غضب التجار تحت نظر الأتراك، الإنكليز، الدنماركيين، الفرنسيس، الألبان والهنود ومجموعات اليونانيين المقيمين أو الذين لا يأتون إلا ليعبروا البلاد باتجاه القاهرة، إسكندرية، كازا بلانكا، اسطنبول وإلى بلاد فارس، كما يتحدثون دوماً لوالد سلام المتحكم بالموانئ والأسواق الشعبية والقوافل المغادرة إلى الجنوب الليبي إلى الممالك الأفريقية. قبل بلوغه الخامسة عشرة، أدرك معنى كل ذلك. الرغبة والأحلام! لكنه كان متصوفاً في رحاب ابتسامة ناصعة. انكليزية من والدة ايرلندية. غروب رائق. مسنّ مالطي. ركض منعش بين الأزقة. جلسات شرب الشاي أوقات العصر في فناء القنصلية، لكنه لا يستطيع إلا التفكير في الحديث الضبابي عن ألمه الشخصي، كأن شخصاً مختلفاً في داخله، يتحدث حول تلك الأحزان الوجودية. قرين خفي. خلال أيامه الطفولية الرائعة، عثر على مجلد باللغة الإنكليزية قديم رائع حول العشق الفارسي، استخرجه من بين المجلدات القديمة في مكتبة المالطي التي تم ضمها لاحقاً لمكتبة إحدى القنصليات الأوروبية. حمله راكضاً عبر طرقات طرابلس كجواد سباق أصيل دون أن يتوقف، قلبه كان ينبض بقوة ألف حصان، مندفعاً إلى إليزا التي وجدها جالسة داخل الحديقة الانجليزية تحت الأشجار المزهرة والظليلة تحصي أوراق الشجر التي أخذتْ تتساقط، بلون شعرها السابح.

جلسا معاً تحت الشجرة الوارفة، كانت الأنسام الرقيقة تعبر

بهمهمات أشبه بالعزف المكتوم من بعيد، عزف مكتوم في القلب، همهمات غامضة مقدّسة تتخلل أوراق الشجر ثم تسري كالأحلام بين خصلات شعرها التي ظلتْ تلامس للأبد وجهه، طالعا معاً تلك القصص الفارسية المبهجة فاتسعت عروقهما فرحاً، تمددت إليزا على ظهرها، ثم طالعتْ السماء من خلال كثافة الأوراق، مبتهجة بالاشتياق والاستسلام.

«جميلة، ها».

«نعم».

قال وهو يتأملها، فيما حرفت هي بعينيها ناحيته، قالت: «أبي يقول بأننا سنسافر إلى بلاد فارس». تلك الذكريات الصغيرة تنساب كالموسيقى المعتمة في ذهنه، حاول طويلاً أن يتخطاها عبثاً فهي تصطاده كل مرة، يستمع للصوت الطفولي، للحظات التي تتركه في حالة غير محتملة من الإحساس بالفقدان والتيه، . كما إنه حاول أن يرويها لأي صديق بوسعه الإصغاء جيداً، كل مرة تبدو له الكلمات فظة مليئة بالوحشة والغلظة، كانت دائماً تخرج على نحو مزعج، لتروي قصصاً مختلفة عن ظلمات الماضي. النور الذي لا مكان له. الجمال الذي يتلاشى بين تلك المنعطفات المعتمة لروح. المنعطفات التي تكونتْ أصلاً بسبب فقدان جزءاً كبير من تلك الروح، يوماً تلو الآخر. الذكريات السعيدة والإحساس بالوحدة. العشق المنتهي، يخلّف فراغات معتمة لا تنجح الأيام في سدها، تتكلس ببطء، تعتم مرة أخرى.

الفقدان!

أشبه بمكتبة ذات فراغات في الأرفف. النقص!

هكذا فكّر على الدوام، السنوات جعلتْ من كل تلك المشاعر مجرد تشبيهات خرافية!

«لماذا؟».

سأل بيأس مكتوم.

«أبي يتحدث عن الحرب – قالتْ محاولة أن تبدو متماسكة – الحرب في طرابلس».

«بلاد فارس جميلة، صحيح؟».

«هكذا يقول والدي، ربما سيجعلونه قنصلاً هناك».

«لكن والدك مدرّس».

«صحيح، إنما من الجيد أن يغدو قنصلاً، أليس كذلك؟».

«جيد – كان يبدو مكتئباً أكثر – أخبرني أبي ذات مرة بأنه يريدني قنصلاً في أوروبا، لكننا بحاجة لتجارات أكثر أهمية واستقلال أكبر ثم أخبرني بأنه يريدني رئيساً للوزراء».

«ستكون أفضل رئيس وزراء، أنا متأكدة».

ابتسما لوهلة، كانت الأوراق تواصل التساقط.

«متى تعودون؟».

«نحن؟ – سألتْ وهي ساهمة – والدي يقول لن نعود أبداً».

«هذا سيئ، أود أن أراكِ دوماً، هذا سيء للغاية».

«تستطيع أن تقرأ القصائد الفارسية، سأقرؤها أنا، سأفعل ذلك من أجلك، هل ستفعل ذلك من أجلي، ستراني فيها، أنا سأراك».

«لكن متى ستسافرون؟».

قال بصبر نافد.

«غداً».

فقال بخفوت.

«بهذه السرعة تغادرون!!».

حلّق طير من الشجرة الورافة، فبكتْ إليزا، بكاء هادئاً، استقر في رأسه طويلاً، لم يمحه حتى هدير البوارج الإيطالية وهي تدك أزقة طرابلس بمدافعها الهائلة، كأن كل هذا يحدث بسبب اختفاء ابتسامة إليزا. الجمال الناصع للضوء الصباحي الدافئ، شاهد خطوط طفولته، مع اللمعان الذهبي للضوء الذي بدا ندياً كابتسامة مشرقة جعلته يعيد تذكّر ماضيه، احدى أجمل أيام حياته مبتسماً، مقدّراً تلك المنحة الربانية.

الذكريات التي لن تموت!

بدت جميلة.

(5)
الفهم المنطقي دائماً دائري ولا نهائي

طرابلس الغرب، الخمسينيات!

المستشفى.

سكبت الممرضة المالطية عصير المانغو للشاب الجالس بهدوء، بدتْ الأمور أقل فظاظة، لون المانغو ورائحته جعلا من أجواء الغرفة لطيفة أكثر. للمرة الثانية تظر الى الأزهار الذابلة في الباقات والمزهريات الخزفية، كان قد رفع نفسه قليلاً، ليتطلع من فوق كتف الشاب الجالس قبالته، شاهد حقيقة التناقضات التي استغرقته لوهلة.

«خلال طفولتي كانت الأشياء متعلقة بشدة بالألوان - قال سلام مراد محدقاً في النور المنبعث من النافذة بدا كأنه يتحدث للضوء المتوهج نفسه - طرابلس كانت ملونة جداً، كالأقمشة الهندية أو السجاجيد الفارسية، التشبث العميق بالألوان كان أسلوباً طرابلسياً في الحياة، الاختلاف في التصورات الكثيرة التي تحتل الشارع والأزقة، تعدد الألوان، كثرة اللغات، الأحلام المختلفة، كلها كانت اختلافات

تزداد قوة في المدينة، بالرغم من ذلك كان هناك جوهر واحد يقترب بشدة، لكنني لا أذكره بشكل كامل

خلال طفولتي عشتُ على نحو عجيب كأسطورة طرابلسية، راكضاً بين الحواري والأزقة متشمماً الألوان والأصوات، حين اشعر بقوة خيباتي، أدرك بأن ما وراء هذا الشعور، هو فقداني للألوان، إحساسي بالذبول والاستغراق في الجوهر الواحد، الفقدان طابع طرابلسي».

ابتسم بمرارة، فيما دوّن الشاب بضع كلمات: «لم أعتقد يوماً بأن الأمر يمكن أن يصل لهذا الحد من الإنكار. كان الحدث كله أشبه بالمزحة للوهلة الأولى ثم تحوّل لأمر لا بد منه، بحيث كان يبدو دوماً كأنه جزءاً من طبيعة الحياة، لا ضرر من ورائه، لا ضرر مباشر إن لم يكن وسيلة الجيدة لتخفيف الأضرار، بلا قلق. كان والدي يمتلك تلك النظرة المحددة للحياة، محددة وبسيطة. عمل بموجبها طوال حياته، دون تعقيدات من أي نوع، كما يليق بتاجر منظم الحسابات، يجب أن تجد فرصة الكسب دوماً، أن تمتلك زمام الأمور هو الأهم، بلا تلك القدرة على الامتلاك لا يمكن فعل شيء، لا يمكنك أن تساعد، نحن وجدنا هنا لنساعد، بلا مساعدة، لن تجد سوى الانقسام، بتلك البساطة أدار والدي حياته كما أدارها جدي من قبل. دوماً النفوذ من أجل تقليل الأضرار».

ضحك بشيء من السخرية، ظلتْ عيناه جامدتين. قلبه سبب وجوده هنا بدا أكثر قوة، أكثر تجلّداً كما بدا منتعشاً كقلب الأسد، حين أضاف سائلاً بإحساس شبه يائس، نابع من كآبة الوحدة.

«هل تفهم قصدي؟». حرّك الشاب قلمه في الهواء مجيباً: «اختلافك عن والدك يشعرك بالتناقض». لمعتْ عيناه، فكّر بأنه ما كان ليجد كلمات أفضل لشرح ما يود شرحه، المزيد من النور، أحس بها تماماً، صوت الحقيقة حتى إنه قال بنبرة شخص منهك: «التناقض، صحيح. لم يكن بإمكاني فهم تلك الظروف التي أخذتْ تزداد بشاعة في ذاك الوقت، لا يمكنني تقبّل الوصية التي تركها، شيء ما في داخلي كان يرفضها». ابتسامة ساخرة على وجهه، نفضتْ الألم والمرارة للحظة، قبل أن يعودا ليحتلا مكانهما الطبيعي. بدتا مرسومتين بريشة متقنة، يمكن ملاحظتهما عند العينين بجانب الأنف المدبب والفم الملتوي بشيء من التقزز والكراهية والشفتين المنسحبتين، . بدا أكثر حزناً بالرغم من تلك الملامح المتقززة. الانطباع الذي يتركه بالنظرة الواحدة هو الحزن أو الشرود. لا بدّ بأنها الطبقة التي يسمح لها بالبروز، مظهره كان جليلاً، ناقض نفسه مرة أخرى علناً-: «إلا أنها الوصية الأكثر ذكاءً في تلك الفترة، كان بإمكاني سماع تلك الكلمات كلما احتجتُ إلى ذلك.

الدولة التي سقطتْ نحن كنا عمادها، سقطتْ بسبب الاحتلال الإيطالي، كنا نتوقع ذلك، أصغر طفل في طرابلس آنذاك كان يعرف بأن إيطاليا تود احتلال طرابلس، لم يكن التوقّع بسبب الذكاء، إنما الذكاء هو ما بعد ذلك التوقّع المشاع بين أفراد الشعب. أعداؤنا طوال القرون على الأبواب، لطالما كان والدي التاجر الأكثر تعاملاً مع الطليان. كان يقول. إنما في ذات الوقت، بأن الخطر الحقيقي يكمن في جوارنا، الشعب الذي سيعرف ضعف قوتنا، سيقوم بتعليقنا من

أرجلنا، سيلتهم لحومنا أحياء. والدي مع مجموعته المرتعبة. قرروا فعل تلك الحيل السياسية المستقبلية التي نجحت حين سقطت عائلة القرمانلي نهائياً، الدخول في تجارات كبيرة مع الحكام الجدد قبل أن يغدوا حكاماً، لذا دخلوا مع الطليان في حلف حقيقي، ضم الكثير من المجالات، حين سقط الأتراك بقينا واقفين».

هز رأسه، مسح حبيبات العرق.مع ابتسامة-: «هكذا ببساطة عرفتُ بأنني في وجه الجميع، عدو الشعب، عدو الجميع، كنت تعديت العاشرة بالكاد، الفساد الذي عشناه كان سبباً في تنمية تجارات جديدة، الفساد الذي جعل من طرابلس أجمل بقاع الأرض وأكثرها سحراً، القاع الأخير للأحزان الروحية والطموحات الكبيرة هكذا بالضبط عشتُ طفولتي».

كان الشاب يكتب بهدوء مستخدماً طاولة الأدوية، بعد أن أزاح الأزهار جانباً، بحيث غدتْ وراء ها، لم يعد بوسع المريض أن يلاحظها، فأحس ببعض الارتياح، لم يكن ليطلب إزاحتها، إنما استغرق في الصمت متفكراً في تلك الطفولة البعيدة ؛هو يتذكر أشياء جميلة:، ابتسامة ناصعة، فتاة صهباء انكليزية من أم ايرلندية، غروب رائق، مسنّ مالطي، ركض بين الأزقة، جلسات شرب الشاي أوقات العصر، لكنه لا يستطيع إلا التحدث عن ألمه، كأن شخصاً آخر في داخله هو من يتحدث عن تلك الأحزان الوجودية، قرين خفي.

داخل المستشفى خلال الخمسينيات، كان متمدداً بيأس بين الشراشف البيضاء الفضفاضة ومعدن السرير البارد. أزهار مختلفة على الطاولة. الجزءاً الفارغ من الغرفة، لم يعد فارغاً. روح المكان

والجسد، تلك القصة القديمة التي حلم بها ذات مرة، آنذاك كان طفلاً في أزقة طرابلس. بداية القرن. وقد عشق ابنة مدرس اللغة الإنجليزية الجميلة. كالأنيق الإنكليزي. كان معاً يتحدثان بسهولة عدة لغات حية وقت شرب الشاي، بطلاقة ملائكية، نادرة المثال. يدركان معنى كلمة–الصداقة في كل منها، فيما كان هو يعرف جيداً معنى الكلمات المفردة مثل: العشق، الوحدة، الكتمان كما يكتب قصائد صافية كالفيض القمري، غامضة ككسوف الشمس عن الهجران والصمت. تلك الطفولة البعيدة غدت حلماً طويلاً. خلال إحدى الاجتماعات السرية والمهمة مع رؤساء بعض الشركات النفطية الصغيرة في طرابلس أواخر الخمسينيات، انهار بسبب معضلات متعلقة بالقلب.

داخل المستشفى على السرير بدا ضعيفاً، غارقاً في ذكرياته السعيدة، بالرغم من المرض الذي يُفقده قدراً كبيراً من التركيز الضروري. كانت غرفته المغمورة بالضوء بلا ستائر، النافذة ضخمة، ليدخل الضوء باكتساح، قلبه البارد المحتاج للضوء، بصيرته كذلك، لطالما شعر بأن الظلمة هي التي تجعله مريضاً. الظلمة لا تحتمل، أكثر من المرض. كان الضوء يسقط مباشرة على وجه الزائر. شاب ضئيل الحجم، يتطلع بخجل، من وراء نظارات طبية سميكة ذات إطار أسود. خلال لحظات مليئة بالصمت والجلال، الضوء يعبر النافذة، الشاب على الكرسي بجوار السرير. الأزهار أخذتْ تذبل، ابتسم المسنّ بخفوت، لأول مرة كمسنّ حقيقي. كان التناقض جليّا أمامه.

قبل سنة حين التقيا، جلسا معاً في مكتبه الفخم المليء باللوحات

المقلّدة، الزخارف الصينية والأواني الخزفية، الكتب المجلّدة بفخامة. كانا آنذاك شابين، كليهما. عكس تلك اللحظات في المستشفى، التناقض واضح جداً. الذكريات الصغيرة أخذتْ تنساب كالموسيقى المعتمة في ذهنه، حاول طويلاً تخطّيها عبثاً فهي تصطاده كل مرة، تتركه في حالة غير محتملة من الفقدان والتيه. كما أنه حاول روايتها لأي صديق يمكن له الاستماع، فبدتْ الكلمات فظة مليئة بالوحشة والغلظة، كانت دوماً تخرج على نحو مزعج لتروي قصصاً أخرى عن ظلمات الماضي، النور لا مكان له، الجمال يتلاشى بين تلك المنعطفات المعتمة.

«الكلمات، تلك العاهرات الصغيرات، لا يمكنني أبداً فهمهن أو السيطرة عليهن». قال وهو يصر بأسنانه حانقاً كجبلي، مال بحقد واضح، متألماً بخفوت كما قال. تجنب الشاب كتابتها لكنها استقرت عميقاً في ذهنه. خلال لقائهما الأول قبل سنة تقريباً، دهش من أسلوب حديثه، بمرور الأيام والأشهر أدرك بأن الأحاديث التي يتبناها مميزة نوعاً ما، لا تعتمد على الزمن في تسلسلها إنما على مشاعره ومزاجه، قد يتحدث عن نهايات إحدى قصص حياته، ثم بعد شهر يعود لبدايات تلك القصص، عشرات القصص الشخصية المبتورة، مع عشرات القصص الشخصية المبتورة الأخرى، لتشكّل معاً نسيجاً واحداً قوياً. تعلّم أن يتركه يتحدث، ينهمك بكتابة ملاحظته عن أحاديثه المتقطعة والمتقافزة، بحثاً عن تفاصيل صورة غامضة. هكذا بدا متفقين منذ التقيا للمرة الأولى. كشخص غامض جاء إلى الصحيفة التي يعمل بها متدرباً، استطاع أن ينشر عدة مقالات عن بعض الشخصيات القاع

وتصرّفهم حيال الحكومات اللبنانية. عرف الجميع بأن مسؤولاً كبيراً في الدولة، مع رئيس التحرير المتحمس جاء يطلبه: يريدونك في مكتب رئيس التحرير - الذي هو كرسي وطاولة في مقهى خاص - ترك ما في يده، متجهاً ناحية **المكتب-المقهى**.

كان رئيس التحرير جالساً وراء طاولته الدائمة في المقهى، المسؤول جالساً كالطاووس، في يده غليون أسود بدا ضخماً، يرتدي كأعضاء المافيا الأمريكية تطلّع إليه بهدوء، وقف باحترام لأجل مصافحته متجاهلاً حديث رئيس التحرير.

«أنت كاتب المقالات اللبنانية؟».

سأل.

«نعم».

أجاب.

كان آنذاك في الثالثة والعشرين تقريباً، يضع خطواته الأولى في الصحافة الليبية، مواضيع هادئة، انتقادات مريرة، مقارنات بين ما كان متوقعاً، ما سموه طموحاً والواقع المقيت الذي يرزح فيه الشعب المتطلع إلى أسرار تلك الشركات الضخمة.

«مواضيعك جيدة، أنت ملفت للنظر».

«أشكرك سيدي».

لحظة صمت، أدخل يده إلى جيب صدريته. اخرج علبة ثقاب. أشعل غليونه بحركة مدربة. لا شك أداها مئات المرات.

«أود أن أكتب مذكراتي – قال وهو ينفث الدفقات الأولى من الغليون – أود الحصول على مساعدتك وخبرتك».

«ماذا؟».

أعقب رئيس التحرير متفاجئاً.

«أريده أن يكتب مذكراتي».

«لكن سيدي – اعترض رئيس التحرير منبّهاً – لدينا كُتّاب أكفاء لهذا، هذا الشاب جيد، لكنه ما يزال تحت التمرين، انجاز كتاب مسألة تحتاج إلى التمرّس».

نفث دخان تبغه باتجاه رئيس التحرير، الذي لا يحب المدخنين، لكنه كان يبتسم كالأبله، حين قال المسؤول بهدوء، كلمة إثر كلمة: «قرأت جريدتكم، لطالما قرأتها، لا تفوتني أعدادها مؤخراً – ضحك رئيس التحرير مفتخراً في حين أضاف المسؤول بلا مبالاة – من بين كل المواد التي تُنشر بين صفحاتها، هذا الشاب هو الذهب الوحيد الذي بينكم، إنه بمثابة همنغواي خاصتنا».

جمود متبادل، الشاب ورئيس التحرير، تجاوز الأمر سريعاً، الشرود المغلف على وجه الشاب، ما بدا لا مبالاة مستغربة، حاول المسؤول كسرها: «سأخصص لك راتباً جيداً بل ممتازاً – لحظة صمت، حاول خلالها المسؤول مواصلة كسر الجليد، في حين أخذ رئيس التحرير يتابع الحوار بحيادية، أضاف المسؤول–: ما رأيك بمائة وعشرين دولار كمرتب شهري مبدئياً؟».

رئيس التحرير كاد يغمى عليه، مرتّب وزير مع الإضافات لا يتعدى هذا الرقم. قام الشاب من فوره موافقاً على الاقتراح، دون كلمات، فقط يده الممدودة للمصافحة كانت ترتعش قليلاً من الحماسة والإثارة، باذله المسؤول المصافحة بهدوء اعتيادي.

«أشكرك جداً، سيدي».

«بل الشكر لك للموافقة، أدعى سلام».

«أعرف».

قال الشاب، فاتفقا سريعاً.

كان الصحفي الشاب مدركاً لقيمة الصفقة التي هو في صددها، قصة حياته كاملة، مقابلة مائة وعشرين دولار كل شهر، لا شك بأن الأمر سيستمر على الأقل ثلاث سنوات، كل شهر مبلغ كهذا، نجاح غير متوقع بالنسبة إليه، بكل المقاييس. إنما لم يتوقع مطلقاً أن تكون المهمة بهذه الصعوبة وبهذا الإنهاك الفكري، في محاولة جمع قصة أشبه بالفسيفساء المبعثرة على مسافة ثلاثة كيلو مترات. كان يكتب طوال الوقت. يعيد الكتابة مراراً، بحثاً عن الكلمات الصحيحة. كان يحاول أن يتذكر شخصيته القديمة! كيف كانت. ملامح وجهه. كان يكتب كتابين مختلفين، واحد عن الماضي والآخر عن شخص يتحدث عن الماضي. كان يُدرك معنى كل تلك التفاصيل الصغيرة التي يحاول المسؤول سلام مراد جمعها. مدى الظلال التي اكتسحتها مع السنين. كيف إنه لم يعد قادراً على فصل طفولته عن ذكرياته حول طفولته كلما انقضتْ السنين. تلك الذكريات تزداد أو تقل قوة. كلما

أجهد ذهنه في أشياء متعددة أو قرأ عن الألعاب الطفولية أو الروايات التي تحكي عن بهجة سنوات الطفولة، فهو كصحفي متدرب يقرأ بلغتين مختلفتين. لديه في مكتبته المتواضعة عدة مجلدات عن السير الذاتية. الروايات التي تستند الى شخصيات بعينها. كما إنه يعكف منذ سنوات على تخطيط لكتابة سيرته الضخمة، بداية من جده مروراً بوالده انتهاء بحياته التي يرى قيمتها جيداً متوقعاً أن ينتهي منها عند بلوغه منتصف الأربعينيات، أي بعد قرابة العقدين. شدّ سلام المنهك الغطاء أكثر بقليل، الشراشف الناصعة والكئيبة.

«لا يمكن فهم مسألة السقوط – قالها وهو يواصل شد الغطاء على نحو مربك، لم يكن صعباً معرفة أنه كان يبكي، بدا الأمر جلياً، صوته المتهدج، ارتعاش أصابعه، حين أضاف-: كنا في حال ثم أصبح الوضع مختلفاً، رأيت دموع والدي، رأيتها كل ليلة، كان يتذرع بقراءة المصحف، التجمّعات القبلية التي تحوّلتْ إلى جماعات مسعورة ضد بعضها، لتدافع عن وجودها في وجوه المواطنين قبل المحتلين، الانقسام الحاد، عشته لحظة بلحظة، تلك المجموعات التي رأيت التعصب في أعين رجالها الذين يشدون على قبضاتهم بقوة، يصرّون بأسنانهم بغضب، ينزفون عرقاً ويرتعشون من فرط الحماس والتوتر، كان والدي يخبرني بمدى تأزم الأمر وإنه يستعد لإرسالنا إلى تونس، تحت رعاية بعض أصدقائه الفرنسيس أو أن يرسلني لوحدي مع الإنجليز الذين قضيتُ بصحبتهم فترة القصف الأولى التي دمرت الطرقات والأزقة والحواري طرابلس، لا يمكن فهم مسألة السقوط، لا يمكن فهمها حتى حين نعيشها، لا يمكن فهمها حين نتذكر كيفية

عيشنا لها، كل ما يحدث هو أننا نتذكر أشياء قصيرة المدى، الخوف في عيني إليزا، ارتخاء يديها واستسلامها حين أخبرتني بأنها ستفتقد طرابلس الحبيبة دوماً. طاولة الشطرنج المتكسرة، الحديث بالغيلية، تلك اللغة الموغلة في القدم، التي تعلّمتها لاحقاً بصعوبة ومشقة لأجل إليزا.

حين أغمض عينيّ، أرى طلائع جنود الطليان في الطرقات، اللغة التي أعرفها جيداً، تحولت فجأة إلى طلاسم في ذهني، كان الجنود المشاة قذرين، بعضهم أكثر من القذارة نفسها، الحضارة الرومانية، كانوا يقولون، ظلوا يقولون. المشانق، الأعين التي تحدق في الفراغ لأشخاص كنت أعرفهم، الرائحة النتنة، الطليان يلتقطون الصور التذكارية، عندها أركض عائداً إلى البيت لأجد والدي يبكي محتضناً المصحف المقدس، في غرفتي كنت امتلك مصحفاً، أهداني إياه المسنّ المالطي، قال بأنها كانت في مكتبة أحمد النائب، كنت أعود إلى تلك الصفحات مراراً بحثاً عن تلك الكلمات التي جعلتْ والدي يبكي، لم أكن أجد ما يجعلني أبكي. لم أكتشف الأمر لزمن طويل، أذكر بأنني سألتُ والدي في احدى المرات عن سبب بكائه! كانت عيناه دامعتين، أنفه محمرا من الحمى ووجنتاه قاسيتين وراء لحيته التي غدت معدنية، يغزوها الشيب واللون الرمادي الحزين. كان يجيب بأنها كلمات ثقيلة، صعب على شخص مسنّ مثله تجاهل ما فيها من حكمة، إنها تنير الماضي، هكذا أخبرني يومها أنها تنير الماضي، قضيت كل هذه السنين دون أن أفهم ما أخبرني به أبي، إنارة الماضي، الحنين. لم أعرف مطلقاً إن كان حدث على هذا النحو أم

أن الأحلام زيّفت تلك الوقائع من أساسها. الزمن الطويل، التعقيد في كل التفاصيل، حتى في أحداث ماضينا، أترى أي سبب يدعوني إلى الركض وراء التفاصيل، ؟».

ابتسامته باهتة كالحزن المنساب، ابتسامة تمثال روماني بأنف المدبب، بدا فعلاً كشيء من الماضي العريق. يتذكر تلك اللحظات المليئة بالضحكات الطفولية، المجلدات المفتوحة، رحلات الركض عبر الأزقة الطرابلسية بصحبة إليزا الطفلة الإنجليزية. ضمن إحدى تلك الذكريات، حكاية عمه الذي ذهب إلى الصحراء تاجراً ضمن قافلة كبيرة، بحماية خاطئة، من أجل طموحات أكبر بضم بعض الرجال ذوي النفوذ من مدن الدواخل التي كانت لا تكف عن الثورات، أخبره والده بأن عمه لم يعد قط، كان ذلك خلال عام 1872 سرت شائعات متضاربة عن مذبحة وقعتْ لتلك القافلة الضخمة التي رافقها سوء الطالع منذ البداية.

«ضمن أحلام والدي ظل عمي يتجول متباهياً خلال سهوب الأسيوية، داخل بلاد الأديغة، مبتهجاً بنجاح تجارته، مترجماً تلك البهجة بالرقصات الشجاعة، التحدي والأناقة الشركسية، صحبة فارسة صارمة كالإوز البري، كالبجع عند البحيرات الباردة. الأحاديث القصيرة المبهمة، الجميلات الفارعات يقف بينهن العم مبتهجاً، ممتلئاً بالصحة والعافية». قال سلام ثم اضاف: «في النهاية يكمن الجمال ضمن تلك التفاصيل – ابتسم مستهزئاً – ذات مرة اخبرني والدي بحماس عن رحلة عمي إلى السهوب الأسيوية، إلى الجبال الشاهقة المكللة بالثلوج، بالنسبة لوالدي تلك هي الحقيقة، بالنسبة

لي لم تكن، لكنني فضلتُ الصمت - لاحقاً بعد سنوات - عرفت حقيقة ما حدث لعمي بشكل وافي، تم قتله ببشاعة في الصحراء الكبرى مع قافلته التجارية الضخمة. عرفتُ عندها بأن هناك ضريبة يتوجب علينا دفعها، ضريبة قديمة. حملها جدنا معه على متن احدى المراكب. طاف بها خلال البحار السبعة، السهوب والبلدان النابعة من الرقصات والأبيات الشعرية. حتى استقر في طرابلس في ذات الفترة التي استقرتْ فيها الأساطيل الفرنسية مصر. كان القرمانليون يحكمون البلاد. استقبلوا جدي التاجر بشكل جيد حتى إنهم زوجوه من احدى بناتهم الجميلات. كان صاحب براعة في الأعمال التجارية والمفاوضاتْ. قدم الكثير لبعض أفراد الحاشية. كان صاحب كلمة مسموعة، مهاراته مقدرة جداً، حتى إنه اكتشف نهاية القرمانليين مبكراً جداً، فربط تجارته أكثر مع الأتراك بفضل أصدقاء من تركيا الفتاة في منفاهم بطرابلس الغرب. المجموعات المالطية القاطنة في المدينة. الأتراك من اسطنبول. كان يمد خيوطاً هائلة، كلما انقطع خيط تشبث بآخر فوراً. رأيت بعيني ما فعله والدي عام 1911 حين تحوّل إلى اللغة الإيطالية، معتمداً على أصدقائه في المناصب العليا لكي يمهد لنجاته من هذه المعضلة، كان احد أفراد عائلة القرمانلي يفعل ذات الشيء في تلك الفترة، يحاولان بقدر الإمكان الاحتفاظ ببعض النفوذ».

الفهم الدائم، المنطق الدائري، الفهم المنطقي دائماً دائري ولا نهائي. القدرة على إيجاد تلك النقطة المضيئة التي تجمعه بالتناقضات الرهيبة لوالده كما قال هي التي جعلتْ منه يبدو متزناً؛ الجيوش الإيطالية من ناحية وقوات الدفاع الشعبي من القبائل في الناحية

الأخرى، كلاهما منحاه الاتزان الذاتي. كان يدرك قلة وعدم رفاهية الخيارات أمام أسرته، عموماً.

«الحياة أحياناً مجرد سيناريو محكم، يكتبه الجد في عروق أبنائه وأحفاده، متاهة معتمة كالسجن يصممها بخبث متناهي الدقة، ليضيع فيها نسله، حماية لهم».

هكذا تحدّث سلام ثم ابتسم ساخراً.

(6)

أوهام الانتصارات

داخل المستشفى طلبوا منه البقاء مدة أطول إلا إنه رفض .لديه الرغبة بالعودة إلى محيطه، مكتبته الحزينة بلا شك من دونه، مجلداته الصامتة، أوراقه يومياته، إلى إعادة سرد حياته. كان يائساً جداً، مظاهر الشيخوخة، التجاعيد، علامات الإرهاق ظهرت عليه خلال أسبوع واحد. لديك مشاكل في القلب، هكذا أخبره الطبيب البريطاني.، لكن لا يمكن فعل الكثير حيال ذلك، يتوجب عليك أن تظل هادئاً، فقط لا تنفعل. ابتسم تلك الابتسامة الإنجليزية ثم ربت على كتفه وغادر. أدرك بأنه وصل أخيراً لنهاية الطريق، والده التاجر توفي أيضاً بسبب سكتة قلبية عام 1926، لم يكن مسنّاً، أثناء الكسوف ضحك عالياً، ثم سقط على الشرفة شاعراً بألم فظيع لا يمكن احتماله. كان وقتذاك يتجول في أوروبا، باريس، لندن، روما الفاشية. الحمى الجديدة. أنباء الحروب في إسبانيا، تطغى على الفظائع في بلاده، إنها اللمسة التي يفتقدها دوماً، إنما لا يمكن فهم ذلك على نحو كامل الإدراك، المسألة مرتبطة به شخصياً كشخص يود فعلاً التوصل إلى حقيقة أفكاره،

ليس كصحفي محايد أو متورط في أفعال مشينة أخرى، إنما كرجل يتوجب أن تكون لديه قضية، القضية التي لم يكن مضطراً للبحث عنها، كان يغرق دوماً في البحث داخلها عن مركز صلب يُثبت نفسه فيه، المركز الذي يمكن أن يكون الرؤية العميقة لكل شيء حول تلك القضية، حين يتحدث مع الألمان، الطليان والأمريكان يتوجب عليه أن يفهم قيمة تلك الجوهرة التي يسميها الذات. إنما لسنوات تغاضى عنها أيضاً كما ظل يتغاضى عن تلك الفظائع اليومية.

لم يكن الأمر صعباً في الحياة اليومية، إنما حين يخلد إلى أفكاره الصاخبة تغدو الساعات أكثر تأزماً. إنه البؤس الدائم، لا خلاص منه إلا بالشعر والكتابة عن كل شيء، الأفلام، الأزياء، الرسومات، الرحلات بين الجبال، مباريات مصارعة الثيران، الاحتفالات بالانتصارات المتفرقة، الحياة بلا منغصات. أسطورة. لا بد من بعض المتاعب التي لا حل لها، التعايش مطلوب كأمر طبيعي. كم أحب ذلك على كل حال. كان يرافق عبر العواصم الأوروبية الحسناوات. لم يكن الرجل الذي يلفت الانتباه بقوة إنما كان ذلك السعيد الحظ الذي يَجد دوماً المتعة التي يتوقعها. في نيس الفرنسية الهادئة .

أثناء افتتاح إحدى الحفلات، التقى بها، كانت في الثالثة والعشرين، رشيقة تحب القطط الصغيرة. مليئة بالإكسسوارات. دمية من القماش الملون. كان يجد الجمال في الدمية القماشية كأنها جمال تاريخي عميق. يتطلع إليه لساعات. حين اقتربت منه. ماذا؟ لا شيء. أظن بأن هناك شيء. إعجاب حقيقي. فقط هذا ما في الأمر. ساعة أخرى كانا يتجولان. عبرا معاً المدينة الهادئة. كل شيء كان يبدو

أقرب إلى صلاة جماعية. نعم. لكن لا شيء يشبه الجمال. العينان العسليتان الغارقتان بالسلام. الشفتان الرقيقتان ارتعشتا حين تطلع إليهما. اللمسة الأولى حذرة متحفزة كمهرة جامحة. السباق جوهر الأشياء. العشب البليل. المشروب الساخن. اللذة العميقة. كانت تلك هي الإشارة لكل ذلك، أخبرها بأنه نصف ايرلندي عبر أفريقيا، أعجبتْ بتلك القصة.

في إحدى المرات كان يجوب واحات الصحراء، عندما اعترضته فرقة معدّة لاغتيال الأجانب - كما قيل - طوال أسابيع كان يناضل لأجل حياته الشخصية، في النهاية، استطاع أن يتغلب عليها بالرغم من أنه ليس من الصحراء، كان متنكراً بزي شيخ دين من الحجاز، لذا استطاع أن ينال الحظوة عند شيوخ القبائل العربية، خرج من الصحراء بسلام. حقاً؟! حقاً. تتحدث العربية! أتحدث حتى اللغات الأفريقية. أفريقية؟ نعم. مثل؟ التيدغا. لا أعرفها؟ ليس هناك كثر يعرفونها. قل شيئاً بها. أندا تري. ماذا تعني، ابتسم: أنتِ جميلة. ضحكتْ. في بداية الفصل الشتوي كانا قد تعارفا جيداً. في نهاية الشتاء كانت قررتْ السفر إلى أمريكا البعيدة، ضحك هو، أمريكا؟ يبدو بأن العالم كله يسافر إلى أمريكا. إنها بلاد رائعة، العالم الجديد. إذا سافر العالم القديم برمته إلى أمريكا، لن تغدو عالماً جديداً. إنه كذلك، لا يزال كذلك. أنا أيضاً جديدة. رائعة. ألن تسافر معي إلى هناك. تعرفين بأنني لن أفعل. لكنني لن أبقى هنا. سأصلي من أجلك. سأصبح ممثلة في السينما. ستكونين رائعة. الآمال العظيمة تتحكم بالجمال.

ودّعها في باريس بقبلة على احدى وجنتيها الملتهبتين. بعدها

بعدة أشهر كان جالساً داخل إحدى الحدائق - لإعادة تقدير كل شيء كما قال فيما بعد - ثم فجأة بصق على العشب، مقرراً العودة إلى بلاده. غاضب هو لأن بلده محتل، لم يكن غاضباً، لا يمتلك الغضب، ربما بسبب ذلك لم يقتنع يوماً بأنه وطني، لم يحلم بأن يكون وطنياً.

في حياته التي أخذتْ مسارات متعددة بسبب خياراته المختلفة، لم يكن يشعر بعقدة من أي نوع، إنما هو يقارن نفسه بالأمراء السنوسيين، كانت لديهم خيارات، وهو لديه خيارات، اعتبر نفسه أميراً منذ كان في العشرين من عمره، لم يكن الأمر صعباً، يمكن تفهّم تلك الأفكار التي طافتْ في ذهنه حول طاولة المطعم التوسكاني، عن ضرورة فعل شيء للبلاد الداخلية، تلك الكذبة عن كون الملك يريد شيئاً لمساعدة سكان الدواخل والواحات، ربما تكون تلك طبيعة الملك، إنما لم يسمع أحداً يتفوه بتلك الكلمات نقلاً عن الملك. الملك طبيعته دائماً تحاول مساعدة الناس، حتى إن لم يفكر في ذلك، المساعدة أهم من تلك الشكليات غير المهمة عن الوطنية وحيازة الحدود، الحيازة التي لم يدفع أحد الثمن لأجلها كما تتحدث الصحف الجديدة التي كانت مجرد أوهام استعمارية.، تلك المساعدة هي التي أرادها دوماً بأسلوب ما .ظل الأمر عصيّاً على الفهم، كقطعة خشبية في الرأس لا تتلاشى ولا تذوب مطلقاً لا تتفتت، تلك هي الصورة التي يتلقّاها كلما تحدّث أحد ما عن حيازة الحدود بالدم أو الوطنية بعدد الشهداء والتضحيات.

ذكّر نفسه بصمتْ أدبي، كلمة إثر كلمة. حين كان الملك يحاول

أن يكون أميراً، كانت قوات ليبية أخرى تحاول اقتحام معسكراته. السيطرة كانت لعبة مضحكة، تنتهي بشجارات قبلية. ربما تلك هي الكلمة الحقيقية التي سمعها من مسنّ التقى به عام 1929 في بنغازي داخل إحدى الزوايا السنوسية، كان صارماً لحدّ انه لا يتكلم إلا عن الأمور الضرورية، اضطر لأن ينتظر عدة أسابيع حتى يشرع في تلك الأحاديث التي بدت بلا نهاية، أن يتكلم صحراوي بهذا الشغف، كان أمراً لا ينجح كثيرون بإثارته، هو الصحفي الذي نجح في ذلك، في النهاية لم يتم تقدير عمله مطلقاً، الأرشيف كان مصير عمله، لو لم يحتفظ بنسخة منه، دون علم رؤسائه طبعاً لكان عمله برمته مجرد أسطورة. العينان الضيقتان، الحديث بالتيدغا، اختراق الصحراء بعد مقاتلة فرق اغتيال كاملة، ما بدأ لأجل العشق انتهى أمراً سياسياً بحتاً، المسنّ الصحراوي يدعى: **إيسا**، هكذا يقول بأنه لم يجد الوقت لكي يسمع تحوّل اسمه إلى الرشد، إيسا مجرد تصغير باللغة التباوية، عادة عندما يكبر يتغير الاسم إلى عيسى أو يسا، إنما في حالته – هو الذي ترك بلاد التبو في عمر الثامنة عشرة - كان الوضع مختلفاً على نحو لا يمكن غفرانه، الطريقة التي غادر بها. مهمته كصحفي هي نقل كل ما حدث. هذا بضبط ما حدث، تلك اللعبة الخطرة، نقل كل ما حدث.

حين كان صغيراً، والده أراده أن يكون مدرّساً في إحدى المدارس الطرابلسية. كان العالم بحاجة إلى التهذيب اللائق في نظر والده، باعتباره هذّب ولده كما يجب أي ولد جيد، لكنه رفض كل ذلك لأجل حلم الصحافة، أحد أصدقائه وفّر له فرصة لا يمكن

نسيانها، صحفي، مراسل حربي، مرافق لكتيبتين الإريترية والكتيبة الليبية السابعة التي ذاع صيت بسالتها. على متن باخرة نقل الجنود، انطلق إلى شرق البلاد.

إن كانت تغطيته جيدة، ستنشر في مراسل المساء أو لا ستامبا. عسكر في الباخرة، ضحكات مع معدات عسكرية ثقيلة كالدبابات الضخمة. نكت عن نزهة طويلة الأمد. الصحراويون لا يتوقفون للراحة. أحد الجنود يحدّق إليه، كان يفعل. لا يزال يتذكر كيف حدث الأمر، مريض في قلبه داخل المستشفى، إنما يُدرك الواقع جيداً.

«أنت لا تحب الهدوء، ها؟».

سأله الجندي الإيطالي، أسنانه كانت بنية، وجهه طفولي، كان شيطانياً.

«لا، الأمر ممل كما تعلم».

«أنت وحيد، أليس كذلك؟» أبدى عدم فهمه بإيماءة نكران «لا توجد فتاة تنتظرك! أعني أنت في الثلاثين قلت، صحيح؟ ثم تطارد الأخبار، هذا مأساوي».

«ربما».

«كان يتوجب عليك أن تبقى هناك – ضحك الجندي الإيطالي ثم قال – هناك فتاة تنتظرني، لولا هذه الحرب، أنت تعرف – أسنانه كانت متكسرة، قد تبدأ بالتساقط قريباً، بشكل نهائي، كان يبدو مصاباً بجدري في الطفولة ربما، شيء من الغضب حول غشاء عينيه، تفوح

منه رائحة جندي غاضب، هذا واضح - يكون الأمر صعباً، لكنه خير من التشرد وحيداً كصحفي».

«ما اسمها؟».

«ماذا؟».

«الفتاة التي تنتظرك، ما اسمها؟».

«بيلا».

«إنها جميلة، صحيح ؟».

عندها انفجر الجندي الإيطالي ضاحكاً:

«أتعرف أنت أول ليبي أحبه».

«هل قابلت آخرين؟».

«نعم، لكن توجب علينا قتلهم».

«حين تعود بلّغ سلامي، لبيلا الجميلة». ضحك مرة أخرى ثم قال بحسم ثمل: «لن أفعل مطلقاً أيها الأحمق». ثم شرع يضحك، محتضناً بندقيته كأنها هي بيلا الجميلة التي يقصد طوال الوقت. تركه لشأنه ثم أخذ يتابع الأفق. كان البحر الأبيض المتوسط، ممتداً مليئاً بالسخرية والآلهة، بالآلهة الساخرة. لم يبد هادئاً كما حاول أن يوحي. أحياناً كان يسمح لنفسه الاستماع لدقات قلبه التي بدتْ عالية، أفكاره تهدر كالأمواج في قلب المتوسط ممتزجة مع أصوات المحركات. كانت الباخرة تشق عباب المياه باتجاه درنة ثم بنغازي ربما، لا يعرف بالضبط، لكنه كان لينزل في إحدى الموانئ المعدة

للإنزال العسكري، باخرة محملة بالجنود لوجهة مجهولة، فوق سطح البحر المكتظ بالقصص الأسطورية، العواصف التي تحدث بأهواء بوسيدون المتقلبة. كان الأمر بالنسبة إليه يبدو سخيفاً في السابق، إنما خلال تلك اللحظة العويصة، جزءاً بسيط من القصة كلها بدا له حقيقياً، ليس المهم أن يكون بوسيدون وراءها، ليكن أي إله آخر أكثر عصرية، عاصفة واحدة قوية كافية لإسكات كل هذه القوة العسكرية المجنونة.

كانت السحب البعيدة تبدو كالقبضة القوية مندفعة باتجاههم، تلك اللحظات التي أحس فيها الإيمان العميق يتسرب إلى ثنايا صدره، ربما لأول مرة يدرك تلك الأحاسيس المضطربة، إنما لم يفكر فيها طويلاً، ليس في ذلك الزمن، لم يتذكرها إلا داخل المستشفى الطرابلسي بعد ثلاثة عقود كاملة، فيما هو ينظر إلى الورود الناعسة، علب العصير مع حزم الحلويات الملونة الموضوعة على الطاولة البيضاء الشاحبة، كالذكريات المعتمة رأى كل شيء مجدداً. حين رست الباخرة عند شواطئ مدينة درنة، بدأ الإنزال العسكري الضخم، جنود مرتعبون، معدات عسكرية، أظافر مدماة، فوق الرؤوس شعر كالأسلاك الشائكة. فيما هو يتابع المشهد اقترب منه إيطالي في ملابس أنيقة، لا شك بأنه قد يكون أي شيء إلا أن يكون عسكرياً. ابتسم ثم تساءل بالإنجليزية إن كان يجيد الإيطالية ثم ابتسم أكثر من المرة الأولى. استدرك قائلا بقلق: أردتُ أن أتأكد. كانت لفتة غير ضرورية. انطلقا معاً دون إبطاء إلى إحدى الاستراحات، الجو كان خانقاً، وقد تعرّق بشدة. شربا بعض العصائر، أكلا شطائر سريعة.

صباح يوم التالي أخبره بالمستجدات: «لن ترافق الكتيبة الإريترية، ولا الكتيبة الليبية السابعة، لن ترافق أي كتيبة أعلموني للتو بإلغاء جميع مهامك» أراه ورقة صفراء ثم التفت مبتسماً-: «هذا رائع، صحيح؟». أدخل الورقة في جيبه ثم أضاف قائلاً-: «أن تقبض مالاً بلا عمل مرهق كمرافقة جيشين لمسافة طويلة في الرمال ثم تدخل حرباً، لتكتب قصصاً لإمتاع المترفين في أوروبا الذين يريدون أن يتمتعوا بكونهم خرجوا من الحروب، ليحين الوقت للآخرين كي يغدو قصصاً مأسوية ممتعة». بدا كأنه يتحدث عن مشكلة شخصية، هز رأسه قائلاً: «صحيح، يبدو كأنهم يدفعون لك لكي تسافر».

«بالضبط، هذه هي الميزة الوحيدة».

«أين كنت قبل أن تأتي إلى هنا؟».

«كنت أقضي وقتي في الكتابة، سباقات الخيول، مصارعة الثيران، الكتابة عن الحفلات الدوقات والكردينالات، تحقيقات عن القصور التاريخية، الكنائس التي أخذتْ تتحول إلى ملاجئ معتمة للجرذان، المشاكل السياسية في ايرلندا، الآن أغطي الحروب التي لا تنتهي».

«جيد».

«حقاً»!.

«أظن ذلك».

«ماذا كنت تفعل أنت؟».

«كدت أصبح مدرساً ثم تاجراً رحالاً، لكنني هنا الآن».

«لكنك لن تتقدم أكثر نحو الجنوب».

«سأتجول في بنغازي للبحث عن بعض المواضيع، سأجد ما افعله بقلمي».

«ممتاز، أنصحك بذلك». كانت ابتسامته البريئة ملفتة، إنما متناقضة تماماً مع جديته الطارئة، بعد ذلك أخذا يتحدثان عن عمليات الضرب المتتابع، إجلاء القبائل المتوحشة نحو مناطق أخرى مختلفة، محاولات التوغل إلى الأعماق باستخدام أساليب متنوعة منها الضرب العسكري، والتقسيم المعنوي بين القبائل، تقريب البعض لحدود الإغراء فيما يتم اعتماد الحصار المحكم ضد الأخرى. المجاعات سلاح الأقوياء. تلك القبائل ستصلي حتى نقبل منهم دعاءهم. إسكات الأوهام المضللة التي تجعلهم يعتقدون بأنهم قادرون على الصمود في وجه الجيش الإيطالي. القبائل المتوحشة إنما المتفرقة كحبات الودع، يمكن تشتيتها بفعل العوامل الطبيعية التي يحترمونها جيداً، السلاح العادي مترافقاً مع الجوع، الخوف والعطش. كان الجنود يتحركون بنشاط كالجرذان الممتلئة بالحماس، أنوفهم نحو السماء، فيما أحذيتهم العسكرية ملطخة بالوحل، ثمة سطوة حقيقية في الجوار، يمكن ملاحظتها جيداً.

قبل سنوات، كانت هناك دولة شبه متماسكة ثم تلاشت، علّق أرباب العائلات على المشانق، كان هناك، عشرات الرجال الذين كان يعرفهم في السوق، مشنوقين بملابسهم التي أصبحتْ قذرة، الدماء لا تزال تنزف من أنوفهم، الرصاص يخترق أجسادهم، أشخاص يلتقطون الصور لهم. أحدهم كان يحب الصور. قبل مدة كان يلتقط

الصور مبتسماً مع الأجانب. الغدامسي التاجر كان معلّقاً دون أن يكون قادراً على الابتسام. الجنود يكوّمون الجثث، الجنود يحملون المعدات العسكرية، الجنود يتجمعون أمام الجثث والمعدات العسكرية ليلتقطوا الصور التذكارية.

«لا أفهم سبب مقاومة القبائل، إنهم لا يمتلكون شيئاً، لا يمتلكون إلا فهمهم للطبيعة، مع أن ذلك لم يعد مهماً في الحقيقة مع التوسعات والزمن المنقضي». هز رأسه متأسفاً ثم أضاف-: «لديهم أوهام عن النصر».

كان ذلك محبطاً، الرؤية التي تحمل جانباً من ضيق الأفق لأناس يعتمدون ذكاءهم سبباً رئيسياً لاختراق كل تلك المسافات لأجل البحث عن مجد ملوّث وأسواق مظلمة بجثث مئات الآلاف من الأهالي. لا تزال روحه قلقة، أراد أن يؤكد بأن الفهم أمر ضروري وأن أكثر الأمور صعوبة ليس هو القتال، بل الفهم العميق للأمور المحيطة بالحملات العسكرية، إنها كلمات مفرطة، لكنها الحقيقة، فكّر عميقاً في قدرته على وضع تلك الآلية من الفهم المعقّد للقبائل. تماماً كما قال المسنّ المالطي، صاحب مكتبة: **التقسيم الأول** التي كان يقتني منها الكتب والمجلدات. هيرودوت كان يجمع المعلومات عن هذه البلاد، لأن التاريخ هو نوع من الاستقصاء. في ذاته، تلك الفكرة كانتْ تعتمل عميقاً، كتب بعضاً من دراساته عن عائلات طرابلس، تلك التي من شأنها تهدئة الأوضاع التي أفلتتْ من عقالها، كمرض الطاعون يمكن جعلها مروّضة مجدداً، لوالده نزوات تهذيب المجتمع، كان مهتماً بدراسات السرية لأحمد النائب ومصطفى الخوجة مع تلك العيّنات

من الكتابات القديمة المتعلقة بمجيء الأجانب للبلاد التي تعمها الفوضى من ثم إحلال السلام فيها، فتح مراكز الشرطة ذات الأسماء الغريبة، قوات من أجل حفظ النظام، تسير القوافل إلى الأعماق المجهولة من تلك البلاد، إنها أحلام اليقظة التي راودته خفية من مكتبة والده المدرّس الصارم حتى أن صورته تم توزيعها في بطاقة بريدية كأفضل المدرسين الليبيين من عام 1911. خلال الخمسينيات، كان من الممكن أن يظهر ضمن احدى تلك البطاقات البريدية لو إنه استمع لخطابات والده الأخلاقية المتعلقة بضرورة تهذيب العالم، تطلّع ناحية الأفق، مستنجداً بالطبيعة، تلك الحركة غدت له عادة، ربما الأفق يكون بحراً، سهباً، شجرة، لوحة، شخصاً أو كما في حالته تلك جبال درنة المليئة بالأشجار العملاقة، أفضل تلك اللحظات الممتعة بلا حدود هي التي تأخذه إلى السماوات الزرقاء أو المليئة بالنجوم الامتدادات الرحبة بالرغم من إنها تتركه تائهاً دون علامات للعودة، دون أي إشارة للبداية أو النهاية، مع ذلك لا يمل من البحث في تلك الامتدادات. البحث جوهر الفكرة كلها.

«غالباً ما يكون ذلك صعباً». قال الصحفي الإيطالي وهو يشير إلى الجبال ثم أضاف-: «لكن حتى الصعب يمكن تحقيقه».

«ليس المهم ذلك، المهم هو متى وكيف؟».

«الكتابة عن العمليات العسكرية طوال الأعوام، من عام 1925 حتى هذه اللحظة. كنت في مصراتة قبل ذلك، أعتقد بأن كل هذا وحشي على نحو ما، إنما لا بد منه، إيطاليا نفسها شهدتْ هذا التاريخ المريع من العنف، الحروب الأهلية، انقسام الآراء، تعدّد السيادات،

كل مقاطعة كانت تظن نفسها وطناً لوحدها، لكنها الآن مجرد مدن، تم نشر السلام عموماً بين الإيطاليين-الوطنيين يمكن فعل نفس الشيء مع الأهالي هنا، ظننا بأن الأمر سيكون سهلاً، بوجود قوة كافية، تضبط موازين البلاد الغارقة في الفوضى بسبب الأتراك الهمجيين، إنما يبدو أن المشكلات دائماً قدر الطليان».

«المشكلات، إنها كذلك».

«كنت في أمريكا - بدت ابتسامته أكثر عرضاً كما أكد سلام - عام 1924 نعم، كنت في أمريكا لشهرين رائعين، يا لها من بلاد مجنونة ومبدعة، الجمال فيها بلا حدود، حياة الليل، كانوا يعرضون فيلماً كوميديا، كان رائعاً، لا يمكن تصديق ما يمكن فعله ضمن الأفلام الأمريكية. السحر، إنه سحر كامل. يجعل الذهن مسترخياً، لم أضحك في حياتي بقدر ما ضحكتُ في الشهرين اللذين قضيتهما هناك». ضحكا معاً لجمال هذا الحديث، كلما جاء ذكر أمريكا يكون الحديث ممتعاً. تابع قائلاً: «أظنني كنت لأكون صانع أفلام حقيقي لو لم أغد صحفياً - نبرته غدت شبه يائسة عند نهاية جملته - لكنني أعاني الكثير من الكوابيس، الأفلام تصنع الأحلام، لكنني صانع للكوابيس لأجل تسلية المرضى في أوروبا، فهم يُدركون بأن كلماتي لا تصف الواقع، بقدر ما تفعل الأحاديث عن روعة زعيم المتمردين، واقع سيئ، لا أعرف كيف أنجو منه أو أتجاهل تلك المذابح التي أعيشها، ذات مرة قرأت تقريراً حول التعذيب والانتهاكات ضمن المستعمرات، هل قرأت يوماً عن مآسي المستعمرات؟».

«لا».

«مرعب ما يُكتب – رد الإيطالي منهكاً ومتأسفاً لما يحدث في المستعمرات تحت الحكم العسكري الاستعماري - فظيع جداً ومرعب». ثم سرد الإيطالي بعض الفقرات التي كان يحفظها من الكتاب، القصص والرؤية المرعبة للتفسّخ البشري والقسوة التي بلا حدود. رأى الرعب في عيني رفيقه. كانا على عربة تأخذهما باتجاه بنغازي، ضمن رتل عسكري كبير، بكامل الاستعدادات. قال: «أحسستُ كأنني أعيش فقرات الكتاب ضمن مناطق مختلفة من البلاد، المستعمرة الأغلى كما يؤكد البعض في برقة، طرابلس، كنت مجنداً صغيراً آنذاك، تلك الكلمات عن الحضارة الرومانية، عن الشاطئ الرابع، عن الذهاب إلى الأعلى من الجميع، كانت ذات قيمة كبيرة، حين درستُ تاريخ مجيئنا للمستعمرة، كأنني أعيش فقرات ذلك التقرير الظلامي. الإعدامات، الأعين الساهمة، التفسّخ البطيء في الطرقات، البشر المعلّقين، الادعاءات الدائمة عن مساءلة الحضارة والبربرية البدائية، لم أكن أرى أي تصرفات حضارية فيما نفعل، إنها البشاعة، الإعدامات الجماعية للمواطنين، المعتقلات والتهجير ثم دفع القبائل إلى التهام بعضها. معارك تم الإعداد لها في المكاتب الخاصة بحكومتنا، لم أستطع التغاضي عن كل هذه التصرفات أبداً، . البشاعة الكاملة». تلك النبرة التي غرقت مباشرة في العادية كأنه يعيش لحظات غير حقيقية، يظل يقنع نفسه بأنها بشاعة دون أن يدرك كما يبدو معنى البشاعة! كيف يمكن لشخص أن يُدرك، ذلك الجزءاً الصغير من الرعب الذي يشعر به الإنسان، يدرك بأنه لا محالة سيموت مشنوقاً بعد لحظات، يقضي خلالها يشاهد رفاقه يُعلّقون من

رقابهم، يتخبطون بألم، العشرات منهم، معلّقين أمامه، ثم يتم رفعه إلى المنصة الإعدام. البشاعة لا يمكن إدراكها على هذا النحو. إنما المعرفة، بدت أكثر قيمة، معرفة الخطأ-: «أسلوب حكم المستعمرات كان بشعاً. الأوروبيون حين يخرجون من أوروبا، يتركون إحساسهم الطبيعي بالحضارة والإنسانية وراءهم، يتحولون إلى وحوش، كأننا لا نزال نعيش عصور البربرية، حين كان الإيطاليون الأوائل يقتلون كل ما هو غير روماني لأجل أمجاد روما. إنها الطبيعة المتجذرة، ربما أنا أهذي، ربما الوضع كله مجرد هذيان تاريخي، أتدرك معنى أن تهذي تاريخياً؟».

«لا!».

«هذيان فظيع».

«هذيان؟».

«هذيان فاشستي، نحن في عمقه، تجديف روماني، تماماً». كانت كلمة قوية من إيطالي، بدا متردداً. لم يُدرك إن كانت مجرد العنجهية التي اتصف بها الاستعماريون دوماً لإراحة ضمائرهم وإشعار أنفسهم بالتفوق الأخلاقي الكاذب. لم يعرف يقيناً، لكن لماذا يريد أن يعرف؟! صمتا طويلاً، كأنهما توصلا فجأة إلى الحقيقة المطلقة. الحقيقة البشعة. كانت العربات تسير متهادية ضمن خط كسول وحذر. بعض الضحكات تصل تائهة. الأغاني تهب مع الرياح الباردة، ارتعاش أوراق الأشجار في طيات حُلم متقطع. الأصوات الخيالية. الجمال الطبيعي. كان الجيش الاستعماري قد سيطر على

المنطقة تماماً. تشكيلات المقاومة أبعدتْ. فيما كانت الأدوار تعمل بقوة في منطقة اجدابيا، ظل عمر المختار ومجموعته يعملون على نحو يائس في الجبال. الزمن ليس في صالحهم، القبائل تعمل بعقلية مختلفة. في النهاية قرابة ألفي رجل منتشرون في ما سميتْ بالمقاومة، بالمجاهدين. المقاتلون لأجل الحرية. لا يمكن وصف تلك الحالة البشعة من الحصار الذي هم فيه، ما تم تسميته بالضرب المتتابع. كان يمنح قادة الجيش الإيطالي نوماً عميقاً انتظاراً للّحظة التي يحققون خلالها السلام التام، معنويات الجنود مرتفعة، قبائل ليبية أخرى تعلن ولاءها للحكومة الفاشستية. ذات مرة خلال ظلمات التاريخ، صنعوا سوراً. قالوا إما روما أو الموت عطشاً، لا يزال الأمر سارياً، فكّر باضطراب على تلك العربة. «لو كنت إيطالياً لرأيتُ الأمر جيداً بشكل يدعو للبهجة، إنما لستُ بإيطالي، لذا لا أشعر بالبهجة». حين كان طفلاً، خرج للتجول ككل يوم، عبر الطرقات أحاط به بعض الصبيان، شرعوا يقولون كلمات غريبة عنه، كان صبياً بالكاد أكمل الثانية عشرة، بعينين زجاجتين، سهلتي الانسياب كعيني فتاة. خائن، خائن. قال الصبية ثم دفعوه في اتجاهات مختلفة، لم يكن يعرف معنى الكلمة، بالرغم من أنه كان يقرأ أكثر منهم. والده خائن. أعمامه التجار خونة. كان يحاول تفادي الدفع، إلا إن الكلمة كانت أكثر مدعاة للحزن لاحقاً، تلك الكلمة أفقدته توازنه حتى قبل أن يعرف معناها، في كتبه ليست ثمة ظل لهذه الكلمة.

حين أدرك ما تعنيه ضمن إحدى القواميس المجلدة القديمة، بحث عنها في اللغات الثلاث التي يجيدها كلها كانت بمعنى واحد،

كلها كانت تحكي عن نفس المشاعر التي كان الصبية الصغار يعبّرون عنها بأيديهم الخشنة، بالدفع والضرب. بالأعين الباردة. التقزز. كان على الأرض كل ما لاحظه هو عدم اكتراث الكبار بما يحدث، كانت بهجتهم واضحة، ربما لأول مرة يشهد وضعاً كهذا، ظل يتلقى الضربات حتى ظهر جنود طليان عند نهاية السوق، فكفّ الصبية عن ضربه ومضايقته كما ابتعد الرجال إلى محالهم - قال بأنه يتذكر على نحو ضبابي - شعر عميقاً بالراحة لظهورهم، طوال طفولته كان يتحيّن الفرص أثناء عبور الدوريات الطليان لكي يذهب إلى مكتبته الصغيرة ثم يعود إلى البيت متتبعاً سير الجنود أمام أنظار الصبية الحاقدين والتجار الغاضبين، لم يقلع عن الأمر حتى انتقلوا نهائياً إلى الأحياء الأوروبية، كان في الثالثة عشرة، بعد ثلاث سنوات من مشاهدته للقصف من فوق تلك التلال المطلة على المدينة. على العربة الإيطالية - بعد سنوات - هل كان ذلك الإحساس بالأمان الذي أحس به خلال طفولته يعذبه؟ لا، مطلقاً. هل تصالح مع نفسه؟ لا. هو فقط أصبح أكثر فهماً لمتطلبات حياته، لم يولد ليكون وطنياً.

بمرور الأيام بدأ يُدرك حقيقة كل شيء. العدو ليس هو عدو الجميع فقط، إنما هو العدو الذي يخصك، ذاك الذي يؤذيك مباشرة. قد يعادون الطليان لأنهم ينتهكون أرضهم، إنما لا سبب خاص يدفعه شخصياً لمعاداة الطليان لأجل كونه سبباً عاماً، ففي النهاية الأرض أرضه أيضاً بوسعه عدم القتال لأجلها، من يقتلني لأجل انتهاكها لا يختلف مطلقاً عن من يقتلني لأجل حمايتها! هكذا بالنسبة إليه كانت المسألة واضحة تمام الوضوح. لكنه لم يتصالح مع نفسه، كان لا

يزال يرى الكوابيس، حين يتمدد لينام تختفي نجوم السماء تتحول إلى أعين تراقبه من خلال الأسقف، إلى قلوب تنبض في هلع لا يعود قادراً على النوم إلا ليدخل كوابيسه الدائمة.

«سيكون جيداً أن نسافر معاً إلى أمريكا».

قال الإيطالي ليبدد علامات الشرود.

«نشاهد ذاك الفيلم».

ضحكة مشتركة.

«يا إلهي ثمة جميلات في أمريكا أكثر من باريس».

«جميلات أمريكيات؟».

«لا يمكنك حتى أن تعرف، إنهن مزيج رهيب، أمريكيات–فرنسيات–ايطاليات».

«سنذهب إليها سوية».

«أجل لندعو الرب كي نبقى أحياء».

«أجل لندعو الرب».

«أي رب ستدعو أنت، من الواضح إننا لا نتشارك واحداً، أليس كذلك؟».

«لم أجد الوقت للتفكير في ذلك».

«ماذا؟».

«كوني مسلماً لم أجد الوقت للتفكير حول هذا».

«ربما هذا جيد – قال الإيطالي متحمساً – دينان ندعو بهما كلينا لكلينا، يستجاب لواحد منا. نحن الكاسبان». هذه المرة الضحكة كانت صاخبة، حقيقية وطويلة، كما أنها بدت متواطئة. كان الإيطالي يبدو مرحاً، بل أكثر مرحاً مما كان عليه قبل ساعات أثناء الحديث عن التقرير الاستعماري، مرة أخرى قرر بأن أمريكا هي السبب. وصلا بنغازي، عربات الخيول المحملة بالحبوب، استعماريون نشطون، هدوء نسبي، كأن الحروب مجرد دعاية مغرضة كما تعلن الصحف الفاشستية، تحدث في بقعة أخرى، جنود يدخنون السيجار الإيطالي، يسيرون في مجموعات. الأهالي يتطلعون بأعين ساهمة، كانت خالية من الحياة، بعض الاندهاش في أعين الأطفال، أعينهم الواسعة المليئة بالأحلام والتعب، إنما الأكثر إشراقاً، أشجار النخيل المتطاولة، المبنى الأبيض الشاحب، الفندق الملحق، لا تفارقه تلك الرؤية الشبحية مطلقاً، لم تفارقه حتى خلال تلك اللحظات التي ظن خلالها بأنه نسي تماماً، النسيان في حياته أسطورة.

(7)

سلام مراد: بنغازي للمرة الثانية

قبل سنوات كان صحفياً شاباً، قبلها كان أصغر سناً بكثير ولم يكن صحفياً بعد، مفعماً بالرغبات الجامحة بالسفر والابتعاد، يقرأ مجلدات الرحالة الألماني هاينريش بارث، يبحث عن التفاصيل الصغيرة، المعارك غير المتوقعة التي تستدعي استخدام الأسلحة النارية، لحماية القوافل المكونة من رجال القبائل مع عشرات الوفود من السلاطين البعيدة، والأطلال المنهارة في أعماق التاريخ والصحراء المحيطة بكل شيء. كان يحمل كتبه وأوراقه بين الحواري والأزقة، ينمو كالظلال ببطء والتزام حاسم، يعمل ضمن دوام مسائي كأمين لمكتبة التقسيم الأول، التي أسسها مالطي غدا مسنّاً، ضمن إحدى أزقة طرابلس العتيقة.

حين يغمض عينيه - بعد كل هذه السنين - تشرق خلال عتمة الجفون المغلقة صفاً من المجلدات الغامضة ذات الأغلفة الثقيلة، ثم خلال الممرات المرصوفة بالطين المتصلب يشرع في رؤية العربات السوداء ذات الجوادين، قمم النخيل المتطاولة من وراء المباني،

الدفق الشمسي المنسكب بلا توقف في الطرقات أثناء الأصياف، الباعة المبتهجون بأحلامهم القصيرة المدى، القوائم المتينة للجياد المنهكة التي لا تكف عن عبور الطرقات، بخبب رزين كاحتفال بهيج لأحد باشاوات الأتراك. السنوات لم تسرق منه تلك الرؤى الشخصية - التي ظلت سرية طوال طفولته - إنما رسختها بشكل أقوى حتى غدتْ هي الحقيقة المنشودة. تلك الحقيقة التي يشعر في الغالب بكونها مجرد خيالات لم تولد يوماً ولم تحدث. إذ ذاك يغمض عينيه ليتذكر كل تلك الظلال التي نمتْ ببطء، كما نما هو شخصياً بين الحواري الطرابلسية.

جلس الصحفي الشاب بالقرب من السرير على كرسي، أنزل بعض الباقات من على الطاولة ليستخدمها لأجل الكتابة. بدا غضاً مفعماً بالشباب، به مسحة من التيه، ذلك التيه الذي يعرفه جيداً من خبراته الشخصية كشاب سابق. أقلامه، أوراقه، تلك الدفاتر الصغيرة، التصميم الشارد في العينين، الذي يعرف بأنهما ستزدادان لمعاناً مع الحوارات والذكريات التي تزداد حرارة، هذا ما يحدث كل مرة، حين يجلسان بصمتْ خلال اللقاءات الصحفية، في البدء يكون كل شيء بارداً بلا وجهة محددة ثم تأخذ الأحداث جانباً عاطفياً رهيباً من الذكريات الحميمة.

«كنت دوماً تود العودة للماضي - تساءل الشاب الصحفي - لم تنس سنوات الطفولة قط، بمعرفتك شخصياً ولو على نحو بسيط يدرك المرء، كم تمتلك من خبرات طفولية بلا نهاية، نبع حميمي لا ينضب. يبدو هذا مدهشاً».

«في الماضي - قال وهو على سريره بين الشراشف الناصعة - آنذاك كنت في العاشرة. طرابلس كانت تموج في الأوحال والسقوط المحتوم، خلال يوم هادئ، أخذتُ أركض في الطرقات نحو المكتبة المالطية، حين شاهدتُ ذلك. إيطالي يقوم بجلد أحد الليبيين وسط السوق أمام الجميع دون أن يكون أحد قادراً أو يجرؤ على التدخل، ظل يجلده حتى سقط مغشياً عليه، فشرع يركله بحقد ركلات متتالية - ابتسم بشحوب ثم أضاف ملاحظاً - كان يمكن أن يكون هذا أكثر ذكرياتي طفولتي بشاعة. خلال العام التالي، شاهدتُ مجموعات من الطليان كالذئاب الجائعة أمام أكوام الجثث التي كنت أعرف أصحابها في الأسواق، لطالما رأيتُهم مبتهجين أمام أقداح الشاي، جالسين بخمول بهيج أمام محالهم الصغيرة، لسنوات كنتُ أراهم في كوابيسي، إلى جانب المجلدات والعتمة داخل أروقة سرية، حين أغمض عينيّ أجد بين المجلدات، جثثاً لمواطني ذاك الزمن، كما كنتُ أنسى كل هذا فور شروق الشمس من كل يوم».

كان ذلك في غرفة مغمورة بالضوء الشمسي! الشاب كان يكتب بصمتْ مطبق شبه مقدس، بالرغم الزمن الغائر، كان قادراً على تلمّس الجراح الأساسية. فقبل أشهر من تلك الجلسة، كانت مجموعة متماسكة من شيوخ القبائل كاتبتْ الملك إدريس رسائل تشير بقلق إلى تجمعات مشبوهة ضمن المكاتب الصحفية، معلومات تسرّبتْ لتظهر مدى الخوف الذي يعانيه الجميع في تلك الفترة القاتمة والمليئة بالشكوك تجاه كل شيء وأي شيء، تلك الرسائل كانت تحكي عن خطورة النوادي التي تضم الفاشيين المتنكرين مع أعوانهم، تلك

المعلومات كانت محصورة على عدد قليل من الناس، الشاب كان أحد هؤلاء، لذا أخذتْ القصص المتالية تسبّب له الدهشة عن صحة بعضها. كان أحد أولئك المتسببين لتلك النوادي الغربية-الأوروبية التي تهتم بتسهيل عمل الشركات ضمن البلاد التي نالتْ استقلالها مؤخراً. اللوبي. ذات مرة كان المشروع الإيطالي-الفاشستي الأكثر أملاً بالنسبة للمستعمرين.

كان الغريب بالنسبة إليه صدور مثل هذا الحديث من شخص بدا لسنوات المستفيد الأول من سقوط الدولة العثمانية، لسنوات دخلتْ عائلته ضمن عداوات رهيبة ضد التحركات القبلية، سببتْ الكثير من الجدل السياسي في البلاد، كادتْ تسبب في تقسيم حركات المقاومة في كل بقعة منها، آنذاك كان هو شخصياً يعمل مع الطليان كصحفي أو كما شاع في أواسط الليبيين بالجاسوس، لم تكن صفة الوطنية هي المشاعر التي يُشتهر بها، كما أنه يوضح صراحة بأن الوطنية ليستْ سوى مشاعر يمكن الاختلاف حولها على كل حال، فالتعريفات الكثيرة والظروف المختلفة يمكن لها أن تخلق ظلالاً هائلة في فهم ما قد يكون وطنياً بأسلوب خاطئ، فالأزمان دوماً تعيد تصنيف الناس إلى خانات مختلفة، لذا كان موقفه حيال فكرة تخوينه هادئاً لأبعد الحدود، هو ببساطة لم يكن يفهم المعنى الضبابي للوطنية التي يهتم لها كثير من الليبيين عموماً. لا يمكن تخوين الليبي، كما لا يمكن اقتياده بالعقد الوطنية!

«طويلاً كنا نتهم بأننا لسنا من الوطنيين – قال في إحدى نوبات غضبه النادرة – تلك هي النظرة الليبية اللا مسؤولة والأكثر أنانية،

لكنها النظرة المثالية جداً، لا تعبّر إلا عن اليأس في النمو الطبيعي، كان الطليان قد أسسوا دولة استعمارية قوية بذات الأسلوب الضعيف من الحشد الفاشي، رأينا كيف تم جمعهم وبعثهم من رماد اليأس، ممالك لا تقوم على الأفكار الصحيحة، إنما على خوف الناس وآمالهم، كنا الطبقة الوحيدة التي فهمتْ عمق التغيير الذي يحدث في محيطنا، تركنا كل شيء، لنتغلغل في عمق الخطر القادم من وراء البحار، لأجل حماية الكثير من الأشياء المهمة بالنسبة إلينا، غيرنا اعتمد العزلة، عرفتُ هذا لاحقاً، فيما استسلم بعض التجمعات في عمليات المقاومة، تلك التي انتشرتْ في البداية باعتبارها الحل الممكن الوحيد في مقاومة آلة عسكرية أكثر قوة وصلابة وتقدماً، خمّن ماذا؟ بالنسبة إلينا لم يكن ذلك حلاً من أي نوع، بل على العكس تماماً، المحافظة على الثقافة الداخلية، الانحناء الفعلي في وجه الإعصار، ترك البصاق يجف على الوجه، ليس حلاً مبهراً وليس حلاً كريماً، لكنه الحل الأفضل والأكثر قيمة والحل الوحيد الذي حفظ السلام في بقاع كثيرة، سمح لمعرفة العالم الحديث ثم حين انهارت القوى الاستعمارية المحتلة، كان القليلون الذين فهموا هذا هم من وقع على عاتقهم تأسيس الدولة الجديدة. كانت الدولة حية في نفوسهم، لم يتم تلطيخها بالصراعات والغضب وعدم القدرة الإدارية، إنما كان الأمر مليئاً بالسلام، المحاربون لم يجدوا فرصة لبناء الدولة، ليس لأنهم غير مؤهلين فقط، بل لأنهم أفسدوا أنفسهم في الصراعات العسكرية ولم يعودوا صالحين فعلاً. لتسيير دولة جديدة، لأنها بحاجة إلى أناس لم يتعرضوا للكراهية أو الخوف، بالذات مع الأعداء السابقين، تلك

هي الفكرة الأساسية التي تم الترويج لها جيداً قبل أن تصل البوارج الإيطالية الشواطئ الطرابلسية».

يوم صيفي هادئ، البلاد مقدمة على احتفال اقتصادي كبير، يرى هو شخصياً بأنه ثمرة عمل مكتبي طويل من قبل أناس لن يعرفهم الشعب مطلقاً، قد يتعرضون لمشاكل عويصة في الطرقات دون أن يعرف أحد في الشارع بأنهم وطنيون حتى النخاع، لكنهم لا يحملون السلاح، ولم ينتموا في يوم من الأيام إلى المسلحين أو المجاهدين، بل لم يكونوا يهتمون إلا بأبحاثهم الاقتصادية أو كتاباتهم الصحفية والأدبية مع مصنفاتهم التاريخية.

الخمسينيات كانت فترة الأحلام الكبرى. ليبيا بدت مرتبطة بشدة بالعالم الخارجي، الأفلام الكبرى يتم تصويرها عبر أرجاء البلاد، الشركات النفطية تستعد لخوض خطوة عملاقة في أعماق الوطن المترامي كجسد فتاة بكر مليء بالخصوبة والوعود الباهرة، مهمته كانت مرتبطة بتلك الوعود، أن يجد فرصة أفضل للكسب والأرباح الجيدة حتى قبل الشروع في استخدام الثروات المدفونة، تلك هي مهمته الكبرى خلال خمسينيات حياته المليئة بالأحداث، بدت له تلك هي الفرصة المثلى لإنشاء سمعة جيدة، خلق فرصة أخرى قوية للعودة إلى أوساط الشعب الكادح، في جانب من تفكيره كان راغباً في الإقدام على حدث حقيقي نافع، حلم به طوال أسابيع، تعلّم كيفية إلقائه كما يتعلم الممثل ببطء وانتبه لأداء أدواره، كأنه ضمن أحداث فيلم أسطوري عند أطراف الصحراء، يحاور أبطال أوليمب لنيل الحظوة لدى الشعب، مئات الآلاف من الأعين الحزينة كانت

تعتمد عليه - كما خمن آنذاك - من أجل إنجاح ما ظل يسعى إليه منذ قرابة ثلاثين سنة.

هكذا كان يفكر حين زارها مجدداً خلال فترة تنصيبه كمساعد في توزيع المساعدات بعد الحرب العالمية الثانية، حين تم سحق القوات الإيطالية على مدى أيام مرهقة في الصحراء، قصف متواصل في المدن المتعددة، عندها شاهد كل شيء للمرة الثانية، بالكاد رأى ما رآه يوماً. الخيبة المتجسدة. بالرعب الذي كان فيه الجميع، الدبابات التي تتحرك على نحو جنوني، يسمونه الانتصار. كان العالم يقول: «الانتصار على الشر».

بدا الأهالي جائعين وخائفين، كانت مهمة مرهقة أن تجعلهم خائفين بلا جوع أو ان تلغي الخوف والجوع معاً. كان البؤس في كل مكان - «كنت كمن يسير ضمن كوابيس طفولته» هكذا قال كما كُتب على الحاشية بخط مرتبك الحرب كالرائحة السيئة ما تزال تفوح في الطرقات آثارها البغيضة، كان مع المجموعات التي تهيئ لعودة الأمير السنوسي. الإنجليزية كانت لغة الجديدة للشارع الليبي. احتفالات على هامش المرض والخوف. الراية الانجليزية تخفق كجناح نورس فوق المباني المهدمة. الجنود داخل البارات الجديدة التي افتتحت على أنقاض تلك المباني. التفاهم كان أمراً يزداد سهولة. الصمت والاستماع ثم التنفيذ، شهد تلك الطاعة العمياء لرجال منهكين. الحرب الأخيرة كانت بلا شك مهمة مقبولة، لا أحد بوسعه قول غير ذلك. الاحتفالات طابع عام، في تلك الشوارع العارية من كل شيء، شهد للمرة الثانية الليبيين بأعين ساهمة يسيرون كحيوانات أليفة

فقدت متعة الحياة، أرواحهم منهكة، أطفال شبه عراة جائعون على الدوام، فيما الأفق مليء بالبواخر المدمرة، الطرقات مليئة بالمتاريس المدمرة، في تلك الأزمة ولد شاعر، كما ولد ديكتاتور، عبرت تلك القوات بعنف ما كان مجرد بلدة ناعسة على ضفاف المتوسط. ظلت كما كانت في تلك الفترة من العشرينيات، بوضوح، كانت البلاد تعاني الترقب المليء بالحذر من كل شيء. التجار في أكشاكهم الصغيرة يطالعون التغيّرات الحادثة بصمت غامض وكالأصنام البوذية يراقبون التحولات التي تحدث. لمرتين: **الأولى** كان صحفياً تحت التدريب. **الثانية** كمساعد للجمعيات الدولية، الجمعيات الأمريكية كما كانوا يرددون، في الأولى كان صحفياً أوقفتْ مهمته أواخر سنة 1929 حين كانت الحياة تمر بفترة من التوترات العميقة داخل النسيج الليبي المنهار. قوات أجنبية تسيطر على المدن الرئيسية، تزداد توسعاً، خلافات قبلية على نحو متزايد، أمير جديد يمكّن لنفسه في جهة ما، كما أن قادة مقاتلين ليبين لا يعترفون به أميراً، يحاولون الهجوم على معسكراته، التي يمهد الطليان للسيطرة عليها في إحدى أكثر العمليات ذكاء، كتمهيد أشمل للتوغل في الصحراء الكبرى، كان في خضمّ كل ذلك تائهاً بشدة، الأوامر التي أنهت مهمته جعلت من أحلامه مجرد أوهام لطفل لا يزال يواصل النمو بداخله، مرافقة الكتيبة الإريترية والكتيبة السابعة الليبية، خيال محض.

لم يكن يمتلك ما يفعله، لذا حجز غرفة لنفسه في الفندق كما كان من المفترض أن يفعل، وضع كل متعلقاته، حقيبة بها ملابس وأخرى بها مجلداته النفيسة، أوراقه، أقلامه وأحلامه التي تبعثرت،

جلس على حافة السرير ثم بدأ بالضحك الهستيري لعدة دقائق وسط مخاطه ودموعه. عصراً أخذ يطوف البلدة، شوارعها الطينية، الملحية بيوتاتها البيضاء المتراصة ومحالها التجارية الصغيرة التي يديرها رجال خمدتْ قلوبهم، المقاهي الصغيرة ليومين متتاليين، في اليوم الثالث مع وطأة الملل اقترب منه شاب أمام الفندق، أطلق تحية رد عليها فبدا مبتهجاً، عدّل طربوشه ثم قال بلغته المرحة: «عرفت بأنك لست بإيطالي – ثم غمز مضيفاً – الطليان يسهل معرفتهم».

«حقاً؟».

«حسبتك مصرياً، حسبتك لبنانياً».

ابتسم للفراغ.

«ما اسمك؟».

«مصطفى – عدّل طربوشه مرة أخرى ثم أكد مبتسماً – مصطفى دباش».

«جيد، مصطفى، اسمعني، غرفة صغيرة، بسعر جيد. هذا ما أريده».

«أمممم – فكّر قليلاً، تذكّر ثم قال – عندي طلبك».

«ممتاز».

في ذلك اليوم، بُعيد العصر بقليل، كانا يتفحصان غرفة عند رجل أربعيني بتصرفات غريبة، إيطالي لكنه مسلم، لا يمكن تفادي الطليان، إنهم في كل مكان. هكذا فكّر ثم زرع نقوداً في يد مصطفى الذي غدا

مبتهجاً. «غرفة جيدة، مكان جيد». قال فانفجر الايطالي ضاحكاً ثم بلغة عربية محطمة إنما مليئة بالحياة والإيمان-: «غرفة جيدة، صحفي جيد». لا يمكن إخفاء شيء، كل شيء مشاع كأنك في قرية جبلية، منذ طفولته تلك هي جزءاً من معضلاته، أفعل شيئاً في غرفتك، تجد صداه في كل غرفة، لا يهم دائماً دائما لا يهم. المساحات صغيرة كفاية لحدوث ذلك. خرجا تلك الليلة. أخذا يعبران الطرقات المعتمة باتجاه المقهى القريب من الجامع، هناك حيث يجلس الرجال لتبادل الأحاديث، كان اهتمامهم بادياً بعد أن عرفوا بأنه من غرب البلاد، كانت الأخبار متفرقة عن هجمات قادمة من الغرب، تبادل الاتهامات أمر شائع، المخاوف غير الحقيقية تغدو حقيقية، قال له أحد المسنّين لاحقاً، أترك الشائعة كتلة دائرية، عد إليها بعد ساعات تجدها بأيدي، أرجل، رأس، تجدها تحولت إلى شخص كامل الهيئة. يتصرف كما يشاء. هكذا كان التفسير البسيط للشائعات. كانا جالسين على مقعد مصنوع من الطين المطلي بالآجر الأبيض .عند مدخل المقهى الأعين الفضولية، التجاهل. طلبا كوبي شاي. فجلب الصبي مادة سوداء ثقيلة. شربا تحت وطأة الألم والصداع. شيء ما خفي في تلك الليلة. مشاعر مختلطة لم يستقر عليها مطلقاً إنما كان هناك ما يود معرفته دوماً. كان الجميع يتحدثون، كل شيء مختلف تماماً. اللهجة كانت تغلبها البداوة. تشبه تلك القصائد البرية. التي كان يسمعها بين فينة وأخرى في إحدى حواري طرابلس التي غرقت بعيداً عن الأجواء الحالية. كان بوسعه فهم مختلف اللغات: التركية، الايطالية، الإنجليزية والفرنسية، كما بوسعه الحديث باللهجات الإيطالية المختلفة. إنما في

شرق البلاد-برقة كان الوضع مختلفاً جداً. لم يكن قادراً على التركيز، إنما كان يجد بعض المساعدة. المجازات في الحديث، التلاعب غير المفهوم والغيرضروري في نظره بالترتيب الجملي. في خضم دهشته استطاع التوصل إلى بعض المعارف. خلال ساعة تقريباً صار بوسعه فهم ما يدور. حسناً، دائماً الأشياء غير الضرورية هي التي تتداول كأنها ضرورات الحياة كلها. لماذا يقاتلون؟ ماذا فعل السنوسيون؟ لا شيء مهم. هم حققوا الوحدة المفقودة. ماذا؟ إنما على حساب ماذا؟ الوحدة الكاملة للأرض الليبية. يحتاج الأمر لطاسة أخرى. أثقل من الرصاص. منطقي جداً. يا لهذا المفعول الغريب لهذه المادة الثقيلة. لم يعد هناك شيء حقيقي. ينقلبون على بعضهم، كالكلاب المشردة. السياسيون، عباد المال. ماذا قالوا عن الوطن. أتعني الشعراء. شاعر منهك. يتكلم. حسناً، الوطن. تلك اللعبة التي لا يلعبها إلا الأوغاد. أحدهم حكا قصة الناسك والشجرة. لعبة الشيطان. تقبض المال الوفير منهم ثم تحاربهم. غير عادل. الله لا يقبل ما تقوله. الله؟! لكنها الحقيقة. مسنّ غاضب. يدخّن بشراهة. ماذا كنتُ أقول؟ آه، صحيح أنتم لا تعرفون. فجأة، بغضب: لا أحد يعرف. ماذا تعرف أنت؟ ليس الكثير، لكن انظروا، منذ متى نحن لا نعرف، والدي يتحدث عن الباشاوات، العائلات المتحكمة بالمجموعات القبلية المسلحة، مراكز الشرطة، السيطرة، كان يقول بأن الأمر لا يتعدى كونه امتصاصاً للدماء، التحكم بكل شيء في الخارج، ترك البلاد تتفسخ. كان مسنّاً، غاضباً. أنتم لا تريدون أن تعرفوا، فقط تودون الاستمرار في الأحلام، الأحلام دائماً سهلة، لكن يجب أن تعرفوا بأنكم ستدفعون الثمن. كان

الشاي ثقيلاً جدا، لكنهما دفعا ثمنه. مع آذان المغرب أدى الصلاة في الجامع القريب، بصحبة مصطفى والجوقة من المسنّين الغاضبة .

في المقهى مع شيوخ الزاوية والمارة، كانت لحظة استرخاء أعادته لهدوئه الطرابلسي، لوهلة. تلقى عدة أسئلة عقب الصلاة، في طريق العودة، كانوا دائماً ينادونه بالأستاذ. كان الأمر غريباً بالنسبة إليه، لم يكونوا يودون مناداته بالصحفي، لكنه لم يجب على أي من أسئلتهم، بل فعل ما على المدرّس فعله، طرح أسئلة، كان الأمر وجيهاً، كان فعلاً مزدوجاً، صحفي-مدرّس يطرح الأسئلة ما عليهم إلا الإجابة، كان يخط تلك الإجابات ليلاً في دفاتره-أوراقه، على فرشته، داخل غرفته الصغيرة تستلقي المجلدات ذات الأغلفة المعتمة، مجلدات الخمسة للألماني هاينريش بارث، اعترافات القديس أوغسطينوس، مجلدات رحلات هيرودوت التي اقتناها من مكتبة المالطي خلال فترة ما قبل الاحتلال، ترافقه دوماً، يقتبس منها القصص التي يريد، تلك القصص التي تحوي أيضاً على ذكريات طفولته ومراهقته، تذكره بطرقات طرابلس، حين كان يخترقها باتجاه المكتبة، الصمت الذي يحيط به بالرغم من الصخب في الأسواق، اللغط والهمهمة باللغات المختلفة، أصوات العربات، قذائف المدافع من السرايا، الفرقاطات التي تهاجم أطراف المدينة، العصابات والثورات المحيطة، الحديث الدائم حولها، الحفلات اللا نهائية في الطرقات الغارقة في الحماس الوجودي، المدينة التي أخذتْ بشغاف قلب كل من زارها، بسبب حماسها، بساطتها قدرتها على أن تكون هوية أي شخص فيها، كانت تتحول ببساطة وثبات إلى المدينة التي يحلم بها الأوروبيون، كأن

قدرها أن تغدو تحت سيطرة قوة أوروبية، الجميع كان يدرك تلك النبوءة: طرابلس إيطالية بلا شك، أو هكذا ستغدو.

الخمسينيات كانت فترة الحروب الداخلية، في كل الدوائر الحكومية كانت هناك تجمعات وطنية تحارب المشاريع المعدة لأجل خلق نظام ليبرالي كامل، لصالح مشاريع مغلفة بالغطاء الوطني مدعومة من جهات قبلية قوية، أخذتْ تزداد قوة مع الأيام، سرعان ما ظهرت الخلافات في مؤسسات الدولة لأسباب قبلية بحتة، فلم تعد هناك دولة إنما مجرد أجهزة تنهار باستمرار، بلا توقف حتى سويتْ بالأرض، نهائياً. خلال ذلك اليوم في المستشفى كان يمتلك اعتقاداً لا يمكن دحضه بأنه ساعد في إنشاء جزءاً مدني بسيط في عقلية لم تعرف منذ قرون طويلة حكماً مدنياً من أي نوع.

خلال الخمسينيات، كانت تلك النبوءة تدفعه للابتسام، لم تعد نبوءة، إنما مجرد طموح خائب، ظن بأنه عاش فترة طويلة ضمن طموح خائب، ليس هو فقط إنما حتى أولئك الذين كسبوا بطولاتهم، كانوا يعيشون طموحاً خائباً. رأى بعينيه تلك الحقيقية المجردة، تطلع إلى عيني الصحفي الشاب الذي كان يستمع إليه، بكل إيمان. ثم لم يقل أي كلمة في هذا الخصوص. واصل الصمت والتطلع في لحظة بدتْ أشبه بفقدان الذاكرة، الماضي كان حاضراً دوماً إنما بأسلوب مفكك يصعب جمعه.

تفاصيل منهكة يستعيدها بهدوء لتظهر ببطء مليئة بالغموض. يتذكر أيضاً قصة عشق طفولية. آنذاك كان في الحادية عشرة. أحب ابنة المدرس الإنجليزي أوائل القرن الماضي. داخل إحدى

مستشفيات طرابلس ممدداً في سريره. ضوء الصباح، أضواء المساء. حركة الممرضات. الأعين التي تطالع وجهه عن قرب، الابتسامات، كلمات التشجيع والمزيد من باقات الورود. ساعته على الطاولة تلمع. ربما طلب هو ذلك من أحد الأطباء. خفوت في كل شيء. لامعان خافت يزداد بريقاً ثم يخفت مجدداً. لا بد بأنه انهار أثناء الاجتماع. أعين جليدية تحدّق به كأقمار قطبية. المحيط الصاخب فوق ثريات كالشموس متدلية. تمتم بكلمات ثم تحرّك الضوء مجدداً. أغلقت الستائر. على حافة الوعي. ثم فتحتْ من جديد. كان طفلاً. والده يقرأ من المصحف الشريف. غرفة شبه معتمة. خيوط نحيلة من الضوء. يتطلع إلى والده باتصال، يبدو مرهقاً. «والدي». يردد فيقترب منه مشعاً، الممرض بملابسه البيضاء، تعكس الأضواء، مفتول العضلات. «عمك يا بني».| «عمي؟». | «عمك، نعم».| «عمي يا أبي». | «عبر سهوب الخضراء الممتدة، مع جميلات كالبجع. أرض الأديغة المقدسة». | «لا يا أبي، لا».| «الأديغة يا بني هم نحن، لا تنسى». | «لن افعل، أبي». عمود من النور الخافتْ كالسيدة العذراء تصلي. احدهم يقرأ القرآن بخشوع. ساعته تلمع على الطاولة. لاحظها بالكاد وراء باقات الورود التي تغطي الأرضية. كان بدأ يكره تلك الورود لكنه لم يكن يستطيع الكلام. أحس برغبة ملحة بمزيد من النور لكنه لم يستطع الحديث. دوماً عشق الورود البيضاء الناصعة، غمره إحساس بأنه لم يعد يحبها. كتب مقالة عنها قبل سنة، عن الورود البيضاء، التي بين شعر الأصهب للإنجليزية عبر حواري طرابلس. الماضي – كما قال في مقالته الصغيرة التي قرأها الجميع بحب غامر – الماضي دوماً

برائحة الورود البيضاء. أصبح هذا من تفاصيل الماضي. لو كان معه الشاب الصحفي من بنغازي، رفيقه لأخبره فوراً بكل مكنونات روحه، معاً يبحثان عن تلك التفاصيل التي أخذ يرقنها على الورق. لذا حين استيقظ تماماً، حين استعاد وعيه طلب مباشرة ذلك الصحفي الشاب الذي اصطاده رسمياً داخل إحدى المقاهي الشعبية في بنغازي خلال الخمسينيات.

فالقصة الملهمة التي رويت داخل المطعم التوسكاني بطرابلس خلال الخمسينيات، كانت عن رئيس الوزراء الليبي آنذاك. حين زار ولاية تكساس الأمريكية، بحثاً عن شركات للتنقيب عن البترول، أثناء المؤتمر الصحفي الذي أقيم لأجل ذلك، تلقى السؤال التالي: ما الذي يجعلك تعتقد بوجود بترول في ليبيا؟. عندها أجاب رئيس الوزراء كأنه كان يتوقع سؤالاً كهذا: حسناً، أنتم قمتم بالتنقيب في العربية السعودية، حيث الشمس، الصحراء، الرمال والبدو، فوجدتم البترول. في ليبيا عندنا الشمس، الصحراء، الرمال كما عندنا البدو. لم يبق إلا البترول لنجده. ثم دوتْ ضحكات الصحفيين والدبلوماسيين ورجال الأمن عالية داخل القاعة. صداها لا يزال سارياً في ذهنه. ضحكات عاقلة.

تفاصيل تلك الأيـام على كل شيء من حوله. مريض في المستشفى، مستلق بوحدة بالغة، بالرغم من الصحفيين المحيطين به كما توهّم. باقات الورود الضخمة. قصاصات الصحف اليومية التي تتابع صحته بدقة، أفراد عائلته الضخمة ورفاقه الذين يتسمون بهدوء ووقار مليء بالإيمان محمّلين ببطاقات التهنئة المكتوبة بعدة لغات.

سفراء. قناصل. رؤساء شركات. يتمنون له السلامة والصحة الجيدة. لا تغريه تلك البطاقات المذهبة. يغمض عينيه على الأزهار البيضاء الذابلة في الأصص. الشراشف الناصعة. الجوانب الحديدية لسرير المستشفى كما تظهر تفاصيل الماضي لامعة على زجاج النافذة بعد ساعات المطر الدافئ.

الشاب الصحفي حين فتح تلك المواضيع القديمة والأساسية، كان يُدرك جيداً بأنه يخوض داخل إحدى قلاعه الفكرية التي تؤسس له رؤيته الخاصة تجاه المستقبل. نظرة مرتبطة بشدة بالرؤى الشخصية، بحيث يغدو بناء الدولة أشبه بترتيب غرفة تخص المرء وحده. أسلوبه كان مرتبطاً بوضوح بالمكتبة القديمة من حيث ترتيب المجلدات والفهارس، الوصول إلى الأرفف، الممرات شبه المعتمة، في هذا الخصوص كتب مقالة قصيرة خلال الثلاثينيات شارحاً أهمية المكتبة في البناء المؤسساتي للدولة الحديثة. المقالة نُشرتْ باسم مستعار باللغة الإيطالية، تلقى عليها منحة جيدة باعتباره فرداً نشيطاً، إنما ضمن إحدى النوادي المقتصرة على اليهود، كان يُعامل كيهودي، يهودي التصنيف حتى وإن كان من الأغيار بالنسبة للجمع الذي ضُم إليه، بشكل أعمى. لم يتوقف عن كتابة مقالاته القصيرة بمعدل أربع مقالات شهرياً، رحلات في الأسواق، مقابلات مع المواطنين الأصليين، مترجم مع الرحالة، كتابة رسائل إلى الدوائر الحكومية، إعادة كتابة بعض الملاحظات حيال الخدمات، مع نصوص من أحلامه الطفولية التي وصفها أحد كتاب الأعمدة الطليان بأنها شذرات متينة من الصفاء الروحي. كوّن سريعاً علاقات جيدة في الوسط الصحفي،

انتقل بعدها إلى الأوساط الصغرى للسياسيين ورجال الجيش مع توسّع مستمر، كان جزءاً بسيطاً من تلك الحلقة التي تمت محاربتها بعد الاستقلال من قبل الزعماء المتحمسين وشيوخ القبائل، فيما كان يرى هو تاريخه الشخصي مرتبطاً بكسر العزلة، فهو من جهة الموثق الحقيقي لجزءاً ضيق وحيوي من التأريخ الثقافي والصحفي للبلاد، كما انه من جهة أخرى يعتبر أحد الذين حموا الوجود الليبي خلال فترة الاحتلال، الشيوخ لا يفهمون هذه النقطة، حين انضم أبناؤهم للجيوش العسكرية الاستعمارية لم يتهمهم بالخيانة، بل صبغوا عملهم ذاك بالوطنية، فهم كانوا بحسب التاريخ الشعبي مصدراً للذخيرة التي يقاتلون بها العدو.

حين كان مجرد صحفي صغير مغمور، التقى مسنّاً جنوبياً بعينين شائختين، تلمعان كشهابين ساقطين معاً بعنف متسارع. أخبره عندها تلك القصص التي أراد دوماً سماعها حين كان صغيراً يقرأ مجلدات هاينريش بارث بين الممرات شبه المعتمة لمكتبة المسنّ المالطي.

«لأننا شعب أراد العزلة كحل سياسي بعيداً عن القبائل التي كانت خصوماً – هكذا اخبره المسنّ الجنوبي خلال تلك الفترة ضمن كلمات ظلتْ حية بين صفحات أوراقه التي اصفرتْ – كان أحد الزعماء يقول بأن الحل: هو كسر العزلة بأسلوبها العتيق، فالعزلة واللاعزلة غالباً ما تكون هي المعضلات الكبرى في سبيل الشعوب التي مثلنا، كنا دوماً نمتلك حلولاً غدتْ هي مشاكلنا الكبرى فيما بعد، ما اتبعه السلاطين حاول الزعماء اللاحقون إظهاره كمعضلاتْ».

تلك النظرة المستغربة للحلول التي تغدو معضلات، كانت

البداية الفعلية في اقتناصه لمشروعه الشخصي لفهم التاريخ السياسي في سبيل إبداع مقالات قصيرة ممزوجة بعوالم طفولته.

كان يحفظ ذاك الحديث القديم جيداً، حين جلس وراء طاولته التي جلبها ثم تطلع طويلاً إلى الخزانة قبل أن يقرر سحب ما فيها من أوراق بدتْ كأنها أقدم من الغرفة والفيلا معاً. كانتْ أوراقاً مصفرة تلك التي أخرجها من الخزانة. وضعها على الطاولة، ثم جلس كما كان يفعل دوماً للنظر في مقالاته القصيرة. بدا يقلّب فيها بهدوء محاولاً أن يستعيد على الأقل لحظة من تلك اللحظات الثمينة، للمرة الثانية. أمر لم يُقدم عليه بصدق ووضوح طوال عقدين من آخر مرة أرسل فيها تلك النصوص إلى صديق إيطالي. حملها هذه المرة إلى شاب صغير تابع عدة مقالات له عن حياته القصيرة في بيروت والتقائه بحبيبته الأمريكية، في فترة تميّزتْ بطابع كراهية الأمريكان.

كان أدهشه مدى تطابق أسلوبهما في البحث التاريخي، تطابق حياتهما. عندها أخرج أوراقه مقارناً بين الأسلوبين، بين الحياتين. شخصان متطابقان بشكل عجيب كأنه هو نفسه من كان يكتب تلك المقالات اللبنانية التي أعجب بها.

كان يفقد وقته سريعاً، كان لا بد من ترك تلك الأوراق في أيدي شابة أمينة وقوية: قادرة على منحها فرصة الظهور الجيد. من بين مئات كُتاب الأعمدة في صحف المملكة الليبية اختار ذلك الشاب من أجل أن يكتب سيرته الذاتية.

(8)

ذكريات متوسطية

روى له خلال جلساتهما - بشكل محموم - عن أشياء مختلفة: تصورات طفولية، الطليان، الحروب، حين كان يتجول في الأسواق مرتعشاً خوفاً من الصبية كما أخبره، معرفته لمعنى كلمة الخيانة جسدياً. رأى الكراهية في الأعين. كان صبياً لا يفهم مدى بشاعة تلك الكلمة.

كانت ثلاثة نصوص عن حياته.

استلمها متردداً.

«إنها حياتي، أنت تفهم ذلك، يجب أن تفهم ذلك، حياتي هذه التي بين الأوراق، أنت رائع وتفهم جيداً ما أعنيه، تهمني جداً، يهمني جداً أن تفهم ما أقصد. يجب أن تفهمني».

كان يطالع الكلمات، نصاً تلو الآخر، متأثراً بعمق. داخل المستشفى. كان يوماً صيفياً في طرابلس. اللقاء الأخير بين الأزهار الذابلة. طلب سلام بعدها أن يُنقل إلى بيته، حيث مكتبه المنزلي.

«لا شيء أغرب من تشابه التجارب والأساليب - هكذا قال وهو جالس باعتدال على كنبته المفضلة - لسنوات عشتُ بحثاً عن أسلوب خاص بي في الحياة. إنها معركة شخصية جداً، بعضنا يلاحظها ويقاسيها، بعضنا لا يفعل. افترض بأنك تعيها جيداً وأنك تبحث عن أسلوب خاص أو ربما تعيشه. هل تعبت في إيجاده؟ كنت تكتب في بيروت. كنت تنشر في بيروت. تعشق أمريكية وتخرج مع القوميين في مظاهرات ضد الأمريكان. إنها ليستْ قوميتك أيضاً، معركة كاملة. لم التق بشاب مثلك قط، إننا واحد تقريباً. أحترم هذا، أقدّره عالياً».

أخذ يروي ما عاشه، كان مرتبكاً في البدء، كانطلاق حصان سباق، سرعان ما وجد أسلوباً جيداً للاستمرار بأناقة بالغة، لم يكن يهتم بما يحدث في العالم الخارجي، لم يهتم أبداً، لم يكن يفعل، إنما غاص عميقاً في لا وعيه ثم أخذ مستخرجاً تلك اللحظات البعيدة ضمن قصص مترابطة، متتالية. سيصفها المكتباتي فيما بعد بأنها شفاء للروح!

كان جالساً داخل حديقة أوروبية، وحيداً. يفكر في كل شيء مر به منذ طفولته، والده، تاريخ أجداده، عيني إليزا اللتين بحث عنهما عبثاً، عيني عشيقته الإنجليزية، رفيقة ضابط إيطالي يقود السيارات السريعة. عشيقته التي فقدها بسبب العالم الجديد. فقدها لأجل حلم غامض. حلمه ضاع. عندما ادرك ذلك في لحظة غامضة، قام حاسماً أمره للأبد متخذاً قرار العودة، تاركاً كل شيء وراءه.

لاحقاً استطاع أن يدرك بأنه فكر أيضاً في المسنّ الجنوبي، شيء ما جعله يُفكّر فيه. الوحدة، الأشجار المنتصبة بثبات وبلا مبالاة،

الطيور السابحة في الهواء، الوحدة مرة أخرى، عينيه الضيقتين، بشرته المعتمة المليئة بالتجاعيد، لسبب ما غامض تذكرها تجعيدة تجعيدة، حركتها البطيئة المتوافقة مع مزاج المسنّ المعتم. الأحلام المفقودة ضمن الفراغ الموحش في الصدر. لا يعرف ما هو، لكن هناك شيء جعله يُفكر بإلحاح في المسنّ الجنوبي. تلك اللقاءات في بنغازي عام 1929.

كان جالسين أمام الشاطيء، يراقبان معاً الأمواج ذات القمم البيضاء الناصعة، المنفوشة كطيور الإوز. تظهر ثم تختفي غاطسة، المئات منها تتابع الظهور والاختفاء كأفكاره تماماً، بدتْ كأنها ضمن رقصة كونية.

«ما كنت لأعتبر بأن بلدة مثل بنغازي محطة نهائية لي - قال سلام مراد متوجهاً بالحديث لشخص يدعى بإيسا وهو اسم جنوبي - أستغرب فعلاً أن تترك مدن كبرى كان يمكنك فيها ان تظل بعيداً، في ذات الوقت تكون أكثر إثارة».

كانت الأمواج تتكسر عند صخرة. النوارس، تحلّق بثبات فيما اتخذ نورس شقي موضعاً ثابتاً ليحلّق على ارتفاع بسيطِ ضمن النقطة ذاتها، كانا يتطلعان معاً إلى نورس يُحلّق وحيداً.

«كنتُ ابحث عن أشياء لا أعرفها - أجاب المسنّ كانت الشمس تلمع ضمن تجاعيد وجهه - لم أكن أهدف إلى المغامرة او الإثارة. في بداية شبابي كنتُ غامضاً عند البعض، ربما كنت ابحث عن المغامرات عندها. كنتُ حانقاً، أمتلك الكثير من الأعداء لا أعرفهم.

ما لا أعرفه كان هو العدو. كنتُ أبحث دوماً عن ما لم أره ولم أعرفه، اشخاص لا أعرفهم قد يكونون أعدائي. ذات مرة قتلتُ مسنّاً، أصبح شبحاً يرافقني.كان كابوساً، من خلال الكوابيس عرفتُ عنه أكثر، شركسي ميت في بركة خضراء. كلما تقدّمتُ اكثر كلما أخذتُ أفقد المزيد من غضبي. كلما امتدتْ السموات الزرقاء، أخذتْ نوبات غضبي تتقلص ثم بدأت بفقدان الرغبة في البحث. حدث ذلك على أعتاب بنغازي. توقفتُ هنا، بلا رغبات. فكرة العودة إلى اهلي، نحو الجنوب لم تكنِ واردة في ذهني، لقد فقدتُ كل شيء نهائياً، لم أعد كما كنتْ، كنا أُدرك هذا. البقاء كان الوسيلة الأكثر إقناعاً، حتى انها بدتْ غاية لي، هدفاً، فلم يكن ثمة من ينتظرني»

جزءاً كبير من تلك الكلمات كان مفهوماً بالنسبة إليه بحسب ما تكون الكلمات مفهومة حين تُنطق ملحونة وسط هدير الأمواج. غالباً ما يكون الفهم العميق أو السطحي ذات تفاصيل متفاوتة جداً. يروي أحدهم حكاية، فتشعر بأنك تفهمها جيدا ثم تكتشف بمرور الأيام بأنك كنت تفهمه خطأ، وان فهمك أصبح أكثر وضوحاً عندما وجدت نفسك في موقف مشابه لموقفه، عقب سنوات من سماعك للقصة.

حين كان سلام مريضاً في المستشفى أخبر المكتباتي الشاب.

«خلال تلك الليالي - أكد سلام مراد - كنتُ أساله عن حياته الغامضة».

«لا أعني حياتي مطلقاً - قال في إحدى المرات، كان متمدداً على فرشته يتطلع إلى السقف حالماً ربما بأشياء أطول عمراً من كل

شيء حي - لا أرى بأنني امتلك ما قد يكون مهماً. قبل عقود كنتُ احمل السلاح أتجوّل عبر الصحاري مترصداً القوافل الجانحة. آنذاك كنتُ أقاتل، كنتُ اقتل. كنت امتلك حياة أحدهم، لأنني أكون قادراً على التسبب بموته. التأثير الأكثر وضوحاً في الحياة. عدا ذلك لا شيء يمكن امتلاكه».

«لا بد بأنني كنت عجولاً - أوضح سلام ضمن أوراقه التي سلّمها للشاب المكتباتي لاحقاً يؤكد فيها - سألته مباشرة وبشكل ملح ومستعجل: «ماذا عن العشق؟»».

كنت جالساً على كرسي مصنوع يدوياً حين سألته عن ذلك. هكذا كتب سلام مراد ضمن أوراقه المصفرة: نفث الجنوبي دخاناً نحو سقف الغرفة، كان منتشياً بعمق عندما أجابني:

«حين كنتُ اصغر سناً، كنت أعشق فتاة بعينها كل مرة. كان لدي اعتقاد راسخ بأن جمال العيش هو أن تعشق فتاة ما. تستيقظ لأجلها، تحلم بها وتسعى من أجل نيل رضاها في كل شيء، تتحمل المصاعب لتكون صاحب كبرياء، ترقص في الأعراس لتبيّن عظمة نشاطك، همتك ورجولتك المفرطة، ترتدي أفضل الثياب، تتجول ضمن رحلات طويلة، تخلق صيتاً بأفعال مجيدة، تجمع المقتنيات لتصنع عشك الوثير، تملأ نفسك بحبها حد الثمالة. فعلتُ ذلك حتى منتصف العشرينيات من عمري - ابتسم ثم اخذ نفساً عميقاً من تبغه، قال هو ينفث الدخان - عندما بدأتُ أفهم عبارات خالي على نحو حقيقي بدأت أرى الأسرار الكبرى التي تحدّث عنها دوماً، لأول مرة رأيت في إحدى طرق الصحراء، جيشاً نظامياً مدججاً بالسلاح. لا

زلتُ أذكر ذلك اليوم، عندئذ عرفتُ بأن العشق مثلما هو المحرض الأساسي فإنه قد يكون العائق المميت. مساءلة محزنة وغير مشوقة، لكنني حين اكتشفتُ رغبتي، عشتُ سعيداً لسنوات».

«بعض الأحداث ترسم أقدارنا دون أن تكون أقدارنا».

هكذا قال الشاب.

«إنها جملة صحيحة جداً - انتفض سلام من على السرير - أنت محق تماماً فيما قلته للتو. بعض الأشياء يرسم أقدارنا وهي ليستْ أقدارنا. أنت محق تماماً».

روى بانطلاقة حصان السباق تلك وبالأناقة اللعينة ذاتها.

ذكريات عن ذلك الزمن البعيد فيما كان جالساً بإيمان بالغ مع الجنوبي خلال إحدى الصباحات الهادئة بالقرب من شاطئ بنغازي. صوت البحر الرائق. العتمة الشفافة لم تبعد عنهما المناظر الصباحية. حركة الصيادين الرتيبة. المراكب المتينة يتم دفعها، لتنزلق أخيراً على المياه المعتمة بعيداً برشاقة مدهشة، لم تفشل في إسعاد المسنّ الجنوبي، بانسيابها مع تعالي الضحكات القوية ثم تشرع بالاختفاء خلال العتمة المتبددة رويداً رويداً. لتظهر المدينة. المنازل الطينة. الطرقات المرصوفة. انطلاق العربات التي تجرها الخيول من ورائها الأقدام العارية لجالبي الملح. الأعين البيضاء الواسعة. الأنوف الضخمة كرقاع ملفوفة فيما تظهر الأسنان الناصعة القوية تلوّح كإثبات على شهوة حسية مكبوتة ضمن الأجساد المنهكة السائرة في هدأة الصباح كالأشباح المتثاقلة بكسل أقرب لتمرد طفيف لإحياء

جزءاً بسيط من تلك الروح الساخرة. روائح القهوة. حركة الأمواج التي تشرع في الهدير المتزايد ببطء، كأنها هي الأخرى استيقظتْ تواً.

ليست كل الأيام متشابهة، أحياناً تجتمع الغيوم، تشرع الرياح في الركض بهلع، تتقافز الأمواج عالية متكسرة بقسوة على الصخور البنية اللا مبالية، عندها يكون متمدداً داخل غرفته.

بقايا سحب الأفيون تغطي سماءها، تمنحه دفئاً خاصاً مع خيالات رهيبة. كأنه مجرد نسخة مستقبلية لشخص آخر. الزمن لم يتقدم خطوة، تبادلا المواقع ربما هو الآن شاب صغير يذرع البلدات الجنوبية بحثاً عن شيء ما مثير كما فعل دوماً خلال شبابه. الدموع الثقيلة تنساب ببطء، سوداء لامعة داخل الظلمات.

«أردتُ أن أكتب قصة مسنّ جنوبي - قال من فوق سرير المستشفى ثم تنهد - كتبتُ جزءاً كبيراً من تلك القصة، كل كلمة قالها المسنّ كانت تخبر قصصاً عني، دون أن أعرف، كنتُ استمع إليه بكل جوارحي، كنت أفهمه بالكاد ثم حين جلستُ لأكتب تلك القصص لاحقاً وجدتُ بأنني عشتُ وهماً كبيراً، الفهم، التفهم ليسا مطلقاً تعبيراً عن ما يمكن أن يكون استيعاباً كاملاً. شعرتُ بالخجل من نفسي حتى انني توقفتُ عن الكتابة لسنوات طويلة، حين وجدتُ نصوصك اللبنانية، أحسستُ بالرغبة لأمر غامض بدا مهماً».

كان التفسير الذي اعتمده خاطئاً، بل رجعياً بشكل لا يمكن غفرانه، دائماً كان يعتبر سبب ذلك هو المحيط الذي كان فيه ذلك اليوم، مسنّون يستخدمون لغة دينية في محاولة لفهم واقع الأمر،

في رأيه استخدام لغة السلاح كان أكثر فهماً للواقع من تلك الآراء الدينية والتفسيرات الكثيرة التي تتداول في الشارع وفي ركن تلك الزاوية، بالرغم من كونهم محبين للسلام إلا إنه كصحفي، رأى في نظرتهم للحياة اليومية قاصرة جداً، تماماً كالنباتات المحيطة بهم أو خطط الإصلاحية التي تعتمدها تلك الطغمة الفاشية، فيما هي تضع جميع رعاياها الذين لم يأتوا من وراء البحر في أقفاص النفي الجماعي، ناظرة قاصرة جداً، لا تحمل أقل مستويات الذكاء، تلك الحالة هي التي تكلّم عنها المسنّ الصحراوي أيضاً، والتي حاولوا مقاومتها منذ البداية، بطرق مختلفة، كان الخوف من إنها ستتحقق في جنوب الصحراء، لكنها تحققت في شمال الصحراء ليس بعيداً جداً عن البحر المتوسط. ما حدث في الممالك الأفريقية، حدث ثانية في شمال أفريقيا، بأبشع الأساليب لوهلة شهد رجلاً رأى المستقبل فعلياً، سمعه جيداً، قبض عليه في كلمات محلقة، كتبه على الورق قبل حدوثه بحوالي نصف قرن. لا يتذكر ذلك اليوم إلا معززاً بكثافة أغلب الذكريات، إنها تشابه كرة الصوف، دائرة مكونة من خيط واحد. في لقائهما الأول، جلسا تحت الشجرة لوحدهما:

«قطعت مسافة طويلة حتى هنا، نادرين من هم في سنك يفعلون هذا».

لاحظ المسنّ الصحراوي في حين ابتسم الصحفي ثم قال:

«لدي شعور بأنني تأخرتُ كثيراً».

بلهجة غرب ليبيا الأنيقة.

فقال المسنّ الصحراوي: «إذا أخذنا في الاعتبار بأنك لم تعد أحداً بالمجيء كما أن لا أحد كان في انتظارك، فإنني أعلمك بأنك لم تتأخر مطلقاً».

ابتسما معاً.

أحنى المسنّ رأسه قليلاً، التزم الصمت، كأنه يشعر بخطيئة ارتكبها. أبسط الخطايا تذكّره بتلك التي حدثت قبل سنوات طويلة. الخطايا الكثيفة كسحب شتوية. لحظات لا تنتهي من التذكر الدائم، أحياناً كان يرى خطاياه أمام عينيه، في تلك اللحظات مع ملاحظات الفتى الصحفي، رأى الحدث كله ماثلاً أمامه، شاهد الفسحة العريضة المفتوحة ببياض مبهر.

لم يكن يعاني انقطاعات النوم فحسب، فالكوابيس كانت تدهمه، تجمده في بقعة واحدة ضمن الصحراء، فلا يعود يرى شيئاً من حوله، فقط يقف في مكان مبهر الإضاءة، يتطلع في الفراغ الذي لا يظهر أي شيء معروف بالنسبة إليه، صحراء بلا رمال، بلا كثبان، جبال من العظام البشرية ناصعة ثم امتداد لا نهائي من الفراغ المحبط، يظل جالساً، لا يدري ربما واقفاً بلا تذكر أي شيء، حتى وهو في خلوة الزاوية العيساوية، حين يتذكر هذا الحلم تنتابه نوبة قلق حتى ينزف عرقاً، كثيراً ما استيقظ وهو يطالع السقف المدعم بالجذوع الضخمة محاولاً إبعاد تلك الكوابيس، عبثاً.

«لا أشعر بأنها مجرد كوابيس، غالباً ما أظن بأنها أشياء حقيقية».

يقول فيما هو يراقب البحر مع الصحفي.

«أشياء حقيقية مثل ماذا؟».

«لا أعرف، غالباً ما أظن بأنها الحياة، ما فقدته أو ما سأصبح عليه، كان كابوساً مرعباً في تلك الفترة حين كنت شاباً، أن أفقد كل شيء في حياتي، لكن وأنا في هذا العمر أصبح كابوساً أكثر رعباً، هل قضيتُ حياتي أفسر حلمي بشكل الخاطئ».

«أتعتقد بأنك فسرته بشكل الخاطئ؟».

دون أن يشيح بنظره عن المياه المضطربة قال:

«لم يعد هذا مهماً».

«وما هو المهم؟».

«ليس الكثير، ربما ما تفعله أنت هو المهم».

«ما أهتم له هو ما أنت عليه، ما كنت وما أصبحتْ».

«لا شك إن هذا جيد، ما كنت لأتركه يضيع دون حفظه، لم أفكر في نفسي على نحو كامل، كما كان خالي يفعل أو كما رأيت عدداً من الرجال يفعلون، إنما هو أمر جيد».

«لأي سبب تظنه جيداً».

«جيد لسبب بسيط، منذ اللحظة التي تحدّثنا فيها حول الأمر لم تعد الكوابيس كوابيساً، صارت أفكاراً تحتمل النسيان».

«هل نسيتها؟».

«لا».

«لماذا؟».

«لا أعرف، آنذاك كنت توقفتُ عن رؤية تيبستي في أحلامي، لم أعد اسمع التيدغا، ولم أشتم رائحة الصخور والمياه والصحراء، كنت افتقد تلك الأشياء، كنت أحلم بالهوسا، بالكانما، بالشراكسة الميتين في بقاع خضراء بها مستنقعات راكدة، بفرسان يحملون رسومات الأسود، ما كنت أسمع التيدغا، لم اسمعها لقرابة عشر سنوات كاملة، فقط تلك البُهرة، صحراء بلا رمال، تلك الكوابيس، كانت الشيء الوحيد الذي يذكرني بكوني من تيبستي، بنفسي».

موجة قوية اصطدمتْ بموجة أخرى عائدة، تكسرت المياه في زبد متقافز، كانا يسمعان زعيق نورس شقي يحلّق منفرداً، بأنانية، فيما بدأت الأمواج كأنها تغوص، بيضاء كظهور الإوز في العمق الأزرق للبحر، المياه التي تشبه عيني حكيم تائه.

«إنما إصرارك على تذكّر تلك الذكريات السيئة هو سبب ما تشعر به من إحباط وحزن، ربما هو سبب كل مشاكلك الدينية والروحية، التي تقول بأنك تشعر بها، إنها تُسبب تلك الكوابيس، ألا ترى معي ذلك؟ ألم يكن من الأسهل نسيانها بما إنها تحتمل ذلك، نسيان كل تلك الكوابيس لأجل حياة جديدة هنا».

«لا، أعني ربما كان ذلك مريحاً، ربما حاولت أن أرتاح وأنسى كل ذلك في إحدى المرات، لكنني تساءلتُ مراراً، إن كانت تلك الكوابيس هي الحقيقة الوحيدة التي تذكّرني بمن أكون، تذكّرني بأن أخطائي التي تستعيد نفسها حتى لو كانت مجرد أفكار يمكن نسيانها

بأفكار أخرى، حتى لو كانت كذلك، فالسؤال الذي اعترضني دائماً هي كيف أنسى نفسي، كيف السبيل في نكران تلك الكوابيس من دون نكران ذاتي، دون أن أنسى كوني من التيدا، دون أن أنسى ما فعله أجدادي، دون أن أنسى ما فعله خالي طوال حياته، كان يخشى دوماً من النسيان، كان يدرك بأن الساحة الأخيرة للمعركة هي في رأسه وفي صدره، ما ننساه من تاريخنا، هويتنا كما كان يقول، حقيقتنا، كيف يمكن نسيان تلك الكوابيس دون فقدان آخر ممر إلى الماضي الذي يجمعني بكل ما أنا عليه، في إحدى الليالي عرفتُ بأن احتمال تلك الكوابيس أفضل من نسيانها وتجاهلها. محاولة نسيانها، لا يعني إلا الجنون، أن أغدو هائماً في الطرقات، الأواني تتدلي مني، الأطفال يزعقون ورائي، فيما أرقص من ألم النسيان، كنت لأغدو مجنوناً بسبب تجاهلي للكوابيس، تلك الكوابيس هي ذاكرتي».

كان البحر يمر بفترة سكون مؤقتة، انسحبت النوارس إلى الشاطئ، كما ضربت بهرة الشمس وجه البحر بانعكاس فضي هائل الجمال.

شكّك الصحفي بتساؤل: «لم تكن تريد النسيان؟».

«لم أكن أريد أن أغدو مجنوناً».

قال الصحفي: «إنما أن تتذكر كوابيسك التي تعتبرها ذاكرتك، في حين تحجم قدراتك المغروسة في ذاكرتك نفسها، بحيث تظل بعيداً عن الأشياء التي تعتبرها ممثلة لشخصيتك: الصحراء، الصيد، السلاح، المساحات الكبيرة الفارغة إلا من الجلد والاحتمال ثم القتال

كونك محارباً، حامياً للقوافل ولشعبك، أمر يقود إلى الجنون حتماً».

المسنّ قال: «ربما ما تقوله حقيقي، لكنه لم يقدنِ إلى الجنون».

فسأل الصحفي: «ماذا تمتلك سوى هذا؟».

«البحر! حين كنت صغيراً، كان خالي لا يكف الحديث عن البحر - ابتسم المسنّ لوهلة ثم أضاف قائلاً بمزيج من السخرية والغموض - المياه الزرقاء الممتدة كسماء على الأرض، والدي زاره البحر، صعد على متنه، خالي رآه في أحلامه على الدوام، كان كل يوم يتحدث عنه، عن أسراره، عن المدن الكبرى بجواره، يتحدث عن زيارات قام بها البعض للإسكندرية قبل ولادتي بسنوات، بنغازي، طرابلس، كان ساحراً، خالي أكد دوماً بأنني كائن بحري، الجبال والصحاري الجرداء ليست مهمتي الحقيقية في الحياة، مهمتي ظلت غامضة بالنسبة لي طوال حياتي، قضيتُ ساعات طويلة لأيام وأشهر أمام البحر محاولاً فهم توصيفات خالي دون جدوى - تطلّع إلى الصحفي ثم أضاف قائلاً - أمتلك البحر أيضاً في ذاكرتي - البحر بدأ يعاود صخبه مع هبة رياح مفاجئة كأنها تصدر من الكلمات التائهة، من الذكريات! أخذتْ عدة نوارس فرصة الانتعاش فحلّقت على ارتفاع منخفض، وهي تطالع في العمق الأزرق للمياه، من دون سابق إنذار أخذ نورس صغير الحجم بالغوص عميقاً في المياه، اقتحم سطح البحر باندفاع للحظات ثم عاد للتحليق عالياً، بسرعة كبيرة، في تحويمات واسعة سلسة فوق المياه الزرقاء الصافية، تابعا تلك التحويمات بشرود، كان المسنّ يبدو أكثر شروداً، تجاعيد وجهه بدتْ متقاربة في لوحة عميقة عن مسارات التفكير، بورتريه شخصي

عميق المعنى يمكن إيجاده في كلماته التائهة أمام البحر المتوسط.

ذات مرة حلم بهذا المكان. في أول يوم شاهد فيه البحر أدرك بأن كل تلك المياه الصافية متعلقة بفكرة حزينة. كان يأتي إلي رؤيتها كل صباح. في العتمة مع انزلاق مراكب الصيادين حتى خيوط الضوء الأولى التائهة بدورها عبر مسافات هائلة في الكون لتصطدم بسطح البحر قبالته مستشعراً كمية الدفء والوحدة. تناغم متناقض مثل كل شيء في حياته. كانت المرة الأولى التي سمع فيها كلمة التناقض مشابهاً للوضع الدائم في حياته. أفكاره المشتتة. قرب بئر في تمبكتو فيما هو يراقب بهدوء رعاة البقر يسحبون دلاء المياه التي بدتْ بنية بلون الصحراء التي تركها وراءه، فيما الأطفال السمر الصغار يتراكضون كالفهود النشيطة يتدافعون، يطاردون خيالاتهم المجنحة، جلس بهدوء ثم أخذ يدخن من غليونه منتبهاً لكل حركة مهما بدتْ تافهة، حركة الأوراق، ارتعاش الأعشاب والحشائش الندية بمياه البئر، أصوات الأبقار، توترات الجمال وتجمعات الماعز التي تشاغب على مسافة قريبة مع رائحة الشمس والطين، أغمض عينيه، حين فتحهما كان البحر المتوسط ممتداً كوهم أوليمبي من مئة قرن كاملة. قيّم المكتبة في تيبمكتو هو من تحدّث إليه عن صحة الحروب السرية، عن تواطؤ زعماء القبائل، محاولات تهييج شعوب الصحراء، إغلاق الطرق التجارية، العمل على صنع سلطات جديدة بحدود متّفق عليها في بعض القصور الأوروبية، كان يمتلك صحفاً بلغات أجنبية، صحيفة كان يصدرها بعض أقرب رجالات طرابلس لتوضيح حركة القوافل والدول المتوقع ظهورها خلال ثلاثين سنة من تلك السنوات العجاف،

مع ذلك فإن الزعماء يعملون على صنع مجموعات عدائية تهاجم الأجانب وأي قبيلة تمتلك رغبات مشابهة، هذا لا يمنع تلك الدول من منحهم الحماية الكاملة، المال الكافي، الدعوات الدائمة إلى قصورآيلة للسقوط في مختلف المدن والبلدات، حواف الغابات المعتمة، كل هذا مرتبط كلياً بقدرة أولئك الجماعات الإجرامية على التواصل مع الغوغائيين وجمع المئات منهم لغرض إسقاط الحكومات التي يتبعها الزعماء - إنه وضع متناقض، جبناء متناقضون - كانت الأنباء تتحدث عن تقسيمات مرعبة لأراضي الصحراء والمتاخمة لها، باعتبارها أماكن يمكن استعمارها وتحقيق ذات الأفكار التي تحدث في سلطنات أفريقية في العمق الأسود، قصص مرعبة عن بتر الأعضاء، عن إبادات جماعية، كل تلك القصص كانت تعبر السلطانات كأنها أوبئة محتومة، كان الخوف من الأجانب أمراً ليس عبثياً، بل هو أشبه بالخوف من المرض أو الموت أو حتى الحيوانات المفترسة، لا بد من الاحتماء والدفاع عن الذات، التناقض الذي شهده قيّم مكتبة تيبمكتو كان إيسا المسنّ يراه بوضوح في أرجاء البلاد، الجيوش المسعورة التي اجتاحت كل ركن من الدولة، كان يشهد الأسوأ الذي تحدّث عنه خاله ذات مرة، القصص التي ظن بأنها مجرد أوهام، رآها تحدث أمام عينيه».

«لا شك، أنت شخص يمتلك الكثير من القصص».

هكذا عقّب الصحفي الذي أدرك معنى تلك الملخصات الغامضة التي يرددها إيسا. تعقيباته كانت غير ضرورية لكنها بدت كذلك حينها. كأي شيء آخر في حياته. كان في السابعة عشرة حين بدأ يحلم بكونه كاتباً في صحيفة كبرى. خلال سنواته الأولى في التعليم أبدى ذكاء

مميزاً، جعل الاستعماريون يشعرون بأن مهمتهم الإلهية في المستعمرة ليست بتلك الصعوبة التي ظنوها، كانوا يعتبرونه الثمرة الأولى لرسالتهم في هذه البلاد المحزنة. كان داخل غرفته التي استأجرها، أثناء تتبعه للصحفي الإيطالي، حين شعر بالرغبة في احتساء الشاي في المقهى بين الشعراء، المواطنين وناقلي أخبار الحروب والمقاومة، مقاتلي الحرية، سمع قصة طريفة عن مسنّ جاء من الجنوب، اقترن بتوسكانية في درنة - كما عرف فيما بعد - يعيش كتقي في الجامع، يعمل على تنظيم السقاية في المزارع أسبوعين في الشهر ليكسب رزقه.

«قبل سنوات كنت سعيداً – قال إيسا بترجمة سلام – ثم عرفتُ بأنني كنت فقط أتجاهل حزني، أرى جيداً ما كنت أفكر فيه لا أفتقد شيئاً، لا أشعر بالحنين لشيء، فقط أفكر في مسائل متعددة، أضع قصصاً أخرى أكثر تعقيداً لحياتي. لا أعرف متى بدأت أفعل هذا، لكنني قبل مدة استيقظت صباحاً لأحاول تذكّر متى آخر مرة رأيت فيها خالي آنذاك كنت في درنة، فوق إحدى الجبال الخضراء الممتدة قريباً من البحر، أسمع المتوسط يهدر كذكرى مؤلمة، لم أعرف قط انها المرة الأخيرة، السعادة غالباً متعلقة بتذكّر اللحظات السعيدة، حين تفقد قدرة تذكّر تلك اللحظات تغدو السعادة مجرد أمر منسي في الظلماتْ».

تلك القصص سيتذكرها سلام مراد بعد أقل من نصف عقد في إحدى الطرق الباريسية المعتمة، كان ليلاً كئيباً من ليالي عام 1936 عقب سهرة صاخبة مع التفسخ الثقافي الهائل الذي أعقب سنوات العشرينيات. كانت الأزقة صاخبة، عشاق ضمن كل زاوية، البرد الشديد، العتمة والأضواء مع كثافة الضباب الصاعد بجانب الجسور الغارقة في العتمة.

(9)
تأثيرات ما حدث على شاطئ بنغازي عام 1929

حين شاهده بالقرب من الجامع، كان يسير بتؤدة.

جلبابه الطويل المائل للاصفرار، بعمامته التي تغطي وجهه، حذائه السوداني المصنوع من جلد النمر، كان يمشي مطرقاً، عاقداً يديه خلف ظهره. راقبه قرابة أسبوع كامل، كان يسير بعد صلاة المغرب متجهاً إلى البحر، يجلس هناك في حالة أشبه بالتأمل، يراقب المياه المضطربة كأنه يرى لوحات عن حياته. جسده نحيل، لا يبدو طويلاً كما لا يظهر قصيراً، ربما بسبب نحوله في أول وهلة لا يبدو كما يصفون من العمر السبعيني، يبدو كمراهق ملفوف بالأقمشة الكثيرة الملونة بالكاد يمكن ملاحظة نحوله الشديد. خلال مرضه عندما رأى جسده الأبنوسي المعروق، ظن بأنه أمام جسد المسيح الذي رآه معلّقاً مراراً في مكاتب بعض الأوروبيين، حزيناً في حالة حداد دائمة، بنظرات شاخصة تغدو كابية أثناء نوبات الشرود التي

تنتابه بين الفينة والأخرى، كاللحظات التي كان يجده خلالها جالساً أمام البحر، فيما كانت الأشعة الشمسية تنعكس على بشرته المعتمة، فتجعل من تجاعيد وجهه ذات قصص بطولية، مثل تعرجات غير واقعية لتجاعيد كثبان رملية معتمة. عندما كان يبتسم تتحرك تلك التجاعيد كما تتحرك التصدعات الأرضية أو كما تتشكل الكثبان الرملية، فيها شيء يهز المشاعر.

«كان مسناً جداً - خلال إحدى المرات بدأ يتحدث عنه فيما بدا هذياناً - بعينين متقدتين، جبين ضيق، يلوح عريضاً كساحة معركة أثرية، مليئة بالتجاعيد التي تبدو كخرائط روحية، تخطيطات فكرية منذ عقود، بدا كأنه أخذ بتدبر كثيراً حول مختلف الأمور، يتحدث بهدوء عن معارك عنيفة، تشكيلات منظمة شبه عسكرية، حروب العصابات التي امتهنها قومه طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

كنت صحفياً آنذاك، كنت أدرك معنى تلك الأمور التي تبدو مجرد خيالات للذين كان برفقتهم، مع أنه لم يكن يتحدث كثيراً بحسب الوصف الذي وجدته، إلا أنني التقيت بأكثر الأشخاص براعة في الحديث، شرح لي كيف سقطتْ الأنظمة السلطانية، التي كانت تتحكم بكل ذكاء وجدان شعوب كاملة في الصحراء بوسعها دوماً تحريكهم، لكن الأزمان طالتْ، الذين عاشوا فترة السلطنات الكاملة، أخذوا يقلون، الاهتمام أخذ يقل، التدريبات القديمة اختفتْ كلياً، استطاع الدمار النفسي أن يسبب الهزيمة أكثر من خسارة تلك السلطانات لذاتها، لذلك ظهرتْ فكرة المجموعات المقاتلة الصغيرة. حلقات تتكون من عشرة إلى عشرين رجلا، هدفهم الدائم هو التنقل

في دوائر واستهداف جميع الأغراب، في محيط الصحراء الكبرى، أليستْ هذه فكرة ذكية لبناء سلطة من نوع ما أثناء غياب السلطة المركزية؟ إنما اختلاف الأزمان كان العدو الخفي، العدو الأكثر شراسة، الذي يأخذ الأجيال الجديدة بهدوء إلى هويات مختلفة، تفصلهم عن القضايا الأساسية. كانتْ تلك هي المعركة التي أراد ذلك المسنّ نقلها إلى أبعد نقطة وصلها أحدهم. حين قابلته كان قد أتم كل ما قدر عليه من خلال مشروعه الذي أبدعه بنفسه دون أن يكون قادراً على التأكد من نجاحه أو فشله، دون أن يكون قادراً على العودة إلى موطنه الصحراوي البعيد، مكتفياً بالأخبار المتقطعة للحروب الإيطالية في كل الجبهات داخل البلاد، تلك الحروب بالذات كان يراها تحفيزاً لأفكاره ثم حين سمع بوصول مقاتلين من الصحراء من اجل المشاركة في معارك اجدابيا وجد نفسه معزولاً أكثر مما يجب. أخبرني بأنه شعر بالفشل التام. كان يعرف القادة الذين يقاتلون هناك، لكنه لم يكن يعرف الأسباب التي يقاتلون من أجلها.

قبلها بسنوات طويلة كان دخل في حوارات عاصفة مع الزعيم الموالي للسنوسية، خلال تلك السنوات البعيدة، وضع أولى خبراته بين يدي الزعيم الشاب، هو نفسه الذي نقل المقاتلين إلى الشمال للقتال في صفوف السنوسية. كان يتحدث عن فكرة الوطنية بدوره، وضع إطاراً أكثر اتساعاً تارة، وأكثر ضيقاً تارة أخرى. في تلك الفترة تعلمتُ جيداً – قال سلام للشاب الصحفي – بأن وجود قوات مخالفة هي حلول الآخرين لمشاكلهم. كانت الصحراء مليئة بهم، طوال فترة طفولتي وشبابي كنت أسمع والدي وبعض من رفاقه يتحدثون عنهم

بشيء من الخوف والرعب. كانت استمرتْ مئة عام من عزلتها، ثم أخذتْ تسيطر بقوة على بعض المناطق، الدواخل والواحات البعيدة صار من المتعذر عليها أن تتبع حكم طرابلس أو بنغازي. الثورات شملتْ تلك المناطق، فأخذتْ تضيع في دواماتها السياسية الخاصة، بدأت تبحث عن حلولها بمعزل عن طرابلس وبنغازي، تلك كانت هي المعضلة التي تعترض الجميع في طرابلس، لا يمكن الذهاب إلى أوروبا، لا يمكن اعتراض السفن الأوروبية. البحر ضاع منذ زمن بعيد، لم يبق إلا الصحراء، ضياعها لا يعني إلا حصاراً رهيباً على كل شيء، تلك القوات غير المعروفة كانت هي التي تسبب الخلل الكبير، غالباً ما كان شيوخ المجتمعين مع والدي يروون بأن التواصل الأوروبي، القناصل الأوروبيين بالدواخل هو السبب الحقيقي لعدم السيطرة على تلك المناطق، كما اعتبروا ذلك الأمر فعلاً تاريخياً لم يتم إيجاد حل له حتى حين كانت الإيالة قوية فيما سبق، بل إن الضعف الذي اعترى الإيالة وسبب انهيارها العسكري المدوي هو بسبب طموحات القوة الأوروبية نحو الداخل، قبل ذلك بسبب طموحات القبائل نفسها، فقدتْ طرابلس قدرة السيطرة على الصحراء فيما كانت قد فقدتْ البحر قبلها بفترة، حتى أن البوارج كانت تأتي لتقصف العاصمة كلما أرادتْ وكيفما شاءتْ، سمعتُ تلك الأخبار، كما قرأتها ضمن المكتبة في مخطوطات لا زالتُ امتلكها، تصف كيف أن العائلات الليبية صارت مراكز ضغط، سواء في الدواخل، فبعض العائلات التي تحالفت بوضوح مع القوى الاستعمارية لضمان وجودها القوي، في سبيل ذلك غامرتْ بكل شيء، لم تعد تبالي بأية

ولاءات لطرابلس، بل أصبحتْ ترى بأن حكومات طرابلس عدوة، عداوة ترقى إلى الثأر بالدم، مساءلة شخصية جداً، توارثها النسل كله عبر الأزمان، فيما أخذتْ مساحة التوتر تزداد، ولن تتوقف في القريب مما يهدد سقوط الدولة بشكل مدوي، لتعود تلك العائلات الى التحكم مجدداً متحالفة مع القوى الكبرى التي وطدتْ نفسها للبقاء طويلاً.

والدي كان يكتب في هذا الصدد الحوليات الكبرى، لشرح ما هي الأساليب التي تستخدمها تلك العائلات في البقاء مرتبطة مع القوى الخارجية باعتبارها قوى ضغط أبدية، تعيش بسبب ذلك التحالف، والدي كان يعرض شعوب الصحراء لكسر تلك التحالفات أمام المجمع الحكومي في طرابلس. الصحراويون. السلاطين القدماء، هم القادرون على إسقاط التحالفات القديمة. هكذا كان يرى والدي. لطالما شعرتُ بأن الارتباط كان قوياً بين المصيرين، مصير شعبنا ومصير شعب الصحراء في الجنوب. أخبرني والدي عن تلك السلطنات البعيدة، القصص المتواترة عن كونها سلطنات فكرية ضخمة استطاعتْ نحت هوية شعبية عظيمة، المصريون بنوا الأهرامات، الأشوريون تركوا الملاحم، الصحراويون سطّروا طريقة حياة فريدة، لا تنتهي أو تموت بسهولة، لحفظ نظام سياسي بالغ القوة. تحدّث مع أغلب الرحالة الذين وصلوا للصحراويين - يقول والدي - يمكنهم أن يكونوا جيشاً في اقل من شهر واحد، يمكنهم أن يواجهوا عشرات الآلاف ببضع مئات من الرجال داخل تلك الصحاري، فقدنا ذات مرة جيشاً من ثلاثة الآف من كافة ضواحي

طرابلس تم إرساله لتحطيم القوات التي تعترض طرق القوافل، وقد تم إرساله بضغط من القبائل المتحالفة مع الأوروبيين، وتم إفناؤه تماماً. هكذا أخبرني والدي يوماً، من يومها لم يقلّ حماسي لأهالي الصحراء قط، أنت ترى هذا جيداً، لكنك لن تفهمه فالأزمان تغيرتْ، العقائد استبدلتْ، بالرغم من كل شيء لا يمكن الاستغناء عن الحقائق، ما تعلّمته من كتب التاريخ هو أن ما ينتهي يعود ليبدأ من جديد، لقائي بالمسنّ الجنوبي: إيسا كان مقدّراً بلا شك - هنا ابتسم بشحوب ثم قال ملاحظاً - حتى أنه كان يبحث عن مكتبة قبل أن يفقد هدفه بمرور السنين التي طالتْ».

الظلمات كانت صفة حياته الشبابية، العنف والتوتر اللذين تحكّم بهما لدى امتلاكه لأول سلاح ناري كان أهداه إياه الرحالة الألماني. كان والده أنقذ أحد رفاقه من الموت المحقق، كما شرح وفسّر كرمه المفاجئ، لاحقاً كتب سلام بأن المسألة كانت من أجل تغيير الواقع السياسي. في تلك الفترة، كانت أحلامه بدأت تزداد ضراوة، تخرجه من طوره، بحيث لا يكون بوسعه الجلوس لأجل التحدث مع أحد من رفاقه أو أقاربه، فالتلميحات المرهقة، تحتاج لذهن صافي لفهمها والرد عليها بالمثل وإلا فإن الغضب والحنق يمنحان الكوابيس أسلحة حادة، لتغدو أشد ضراوة، كان إذا أضطر للجلوس في مجلس ما، يترك المسدس ظاهراً، في حالته الانفعالية وشروده، يبدأ الحديث ينحرف بعيداً عنها، تلك الجلسات الضبابية كانت هي الوحيدة التي تبعد عنه بعض الصفات الكريهة في مجتمعه العتيق.

لا أحد يرغب بأن يُعلن بأنه كاره لمجتمعه، تلك الصفة التي

عاني منها خاله، بعد غيابه الطويل، وعزلته الشديدة حتى بعد عودته، بحيث حبس نفسه، في إحدى الشعاب، أسس أول مزرعة في إحدى السفوح الجبلية الممكنة الزراعة، زرع فيها كروم العنب، البقوليات ونباتات أخرى جلب معها بعض الكتب بلغات غربية، بعض منها استعاره من الرحالة، والرهبان المعروفين بعدم انتمائهم لتجمعات سياسية، كذلك من الدراسات القديمة المتضمنة في مكتبة العتيقة لمدينة تيبمكتو المنهارة.

في تلك السفوح المنعزلة، كان الخال يعمل على الكتابة الدائمة القراءة والاستعداد لملاقاة الموت كأي سلطان سري غير متوج، بالرغم من أن صحته جيدة، قوته الجسدية إلا إن هاجس الاستعداد للموت كان قوياً جداً، أثناء جلساته مع خاله، كان يجد الهدوء التام في السفح المزروع، بين الكروم والبقوليات والأزهار الغريبة ذات الأوراق الملونة كالأحلام الطفولية، التي تمتد على بقعة كبيرة جانبية من مزرعته الصغيرة التي يجلب لها الماء باستمرار باستخدام ثلاثة جمال قوية، اشتراها في موجة من الدهشة التي سيطرتْ على الأهالي، اعتبروا ذلك تبديداً للثروة، كان جمع المال من الترجمة التي قدمها للرحلة خلال عدة رحلات، من العربية إلى التيدغا، الهوسا والدازاكا، ساعدهم على كتابة مفردات التيدغا في سطورهم، قبض عدة دنانير ذهبية نمساوية، سنوات عمله في مكتبات تيبمكتو، ارتباطه بالمجالس القديمة، حيازة الأموال من تحديد العلاقات التجارية، تسير القوافل إلى الجهات الأربع. كان شراء تلك المستلزمات لأجل تأسيس مزرعة، ليس فقط مدهشاً للأهالي إنما الدهشة أصابته حتى

هو من أفعاله الأخيرة، إنما الحياة هي التي تحدد كيف نعيشها، الضرورة والحاجة تحددان شخصياتنا، كما أن توفّر الأموال ساعد في تكوين الشخصية سريعاً، على تلك الصخور البنية، كان بكل هدوء وثقة، يعمل على صناعة أفضل شيء عرفه في حياته، على نهاية الوجود الفعلي لأمراضه الروحية، منذ أن تعرّف في أعماق الغابات المظلمة على مجموعة تصنع تلك المادة السحرية، التي تذهب الإحساس العقيم بالثقل وعدم الفهم والحاجة إلى الآخرين دوماً، كان كل مساء يتمدد في كوخه الصغير، بعد أن يعدّ الشاي و الطعام الخفيف والمجلدات الموضوعة في أغلب الزوايا الكوخ، كأنها قماقم أشباح أو بوابات مقدسة لعوالم بعيدة، كان إيسا يأتي دوماً ليجلس بجواره، يقرأ تلك المجلدات، في حين كان الخال، يصر على البقاء وحيداً من بعد صلاة العصر، غير مستعد لاستقبال أحد حتى ابن أخته الأثير، في ذلك اليوم كإحدى التدابير القدرية، جاءه إيسا في زيارة مفاجئة بعد الغروب بلحظات، كانت الظلمة الشفافة، تهبط بين الشعاب، فيما غدت النباتات الأسطورية التي تحيط بالكوخ كأرواح رقيقة ترفرف بصمت مع الأنسام الباردة التي تنساب برشاقة من بين الشعاب الأخدودية المحيطة بالكوخ. الصمت هو كل شيء، طابع المكان، تسلل بهدوء، كي لا يزعج الخال الذي ينتفض عادة لأقل صوت، كأن إبرة تخز جمجمته من الداخل، داس على الأوراق الجافة فأصدرتْ الخشخشة الهادئة، تطلع إلى عظمة ذلك الجانب من تيبستي بجلال، مع شهقة قوية من الهواء البارد دفع باب الكوخ، كان الخال متمدداً على سريره، مفتوح العينين، يطالع السقف، منتشياً

بشكل أثار رعب إيسا، غارقاً في بقعة خيالية، عيناه محمرتان، دموع تتلألأ فيهما كالذكريات الندية، اقترب منه، هزه محاولاً تنبيهه، غير إن الخال أرسل ابتسامة شاردة ثم شرع يضحك ضحكة كسولة، محاولاً شرح بعض الحكايات القديمة، متجاهلاً تساؤلات إيسا، صار يذكر أسماء فتيات، صرن عجائز، إحداهن كانت زوجتْ منذ وقت طويل إلى رجل يقطن في تجرهي البعيدة، ظن بأن الخال يعاني الحمى والمرض والحزن، رتب تمدده على السرير، غطاه مبعداً الناموس، أغلق النوافذ باستخدام قماش أخر. نظم طاولته التي تغزوها الفراشات بسبب الشعلة الغليظة التي ترسل ضوءاً نابعاً من لسان ناري متراقص بغنج خطر. سحب الشعلة إلى طاولة أخرى في الركن البعيد.

عندها قال الخال أغرب كلام، لا يضاهيه إلا تلك التفسيرات التي يبدع الشيخ الصوفي في ترديدها كأنغام أو توشيحات ربانية:

«أنت لا تحلم فحسب، أنت لا تحلم، طفل بداخلك لا يزال يحلم، أنت لا تحلم، كل ما تراه، رآه طفل. حين كنت صغيراً. أنت رأيت ذلك حين كنت طفلاً. أنت لا تحلم، مطلقاً، أنت رأيت والدتك في الحلم فقط، أنت لم ترها في الحقيقة. كنت صغيراً جداً، لكن الأحلام أكبر منا عمراً. والدتك أيضاً حلمتْ بك، قبل أن تراك، ليس غريباً أن تحلم بها دون أن تراها. ما تحلم به، هو ما رأيته في حلمك وأنت طفل. ما تراه في حلمك هو طفولتك».

أوضح إيسا:

«أنت حزين خالي».

يضحك الخال، يشير بأصبعه نافياً:

«لا، لا، لا أنا سعيد يا إيسا سعيد».

إيسا جالس قبالة خاله، الليل الهادئ في الخارج، العتمة.

«أتعرف يا إيسا؟».

«ماذا خالي؟».

كان الخال يتحدث متطلعاً إلى السقف بهدوء وانتشاء.

«كنت صغيراً، كنت مشوشاً جداً. الأشجار لم تكن مجرد أشجار بالنسبة لي، دوماً هنالك شيء آخر في عمق أي شيء. ذات مرة رأيت وداناً يتقافز بين الجبال، كنت صغيراً آنذاك، بدا لي الأمر لعبة رائعة لا يمكن فهمها، عينيّ دمعتا من روعة ما رأيته أمامي، تلك القفزات الرشيقة، الحوافر الداكنة السواد كقطع من الليل، قبل أن أفيق من دهشتي عند قمة الجبل، تحوّل الودان إنساناً ثم تطلّع ناحيتي».

رفع يده إلى السقف، كأنه يمسك بخيوط متدلية من الأعلى مبتسماً أضاف:

«كان ذلك هو والدك يا إيسا، والدك».

شد قبضته بعصبية ثم أكمل على نحو أكثر حزناً:

«تلك الأحلام لم تفارقني قط، طفولتي لم تفارقني قط».

كان الحزن هو الطابع الوحيد في تلك اللحظة، بعد أكثر من خمسة عقود، كان إيسا يشرح للصحفي بأن تلك المشاعر الحزينة

لا تزال تنتابه كلما تذكّر وحدته، يتمدد بهدوء على سريره في غرفته بجانب تلك المجلدات يخرج غليونه ثم يحشوه بالسحر المتجسد، يشعل النار ثم يشرع في الأحلام والذكريات، يطوف بسكون عبر أعتاب الأزمنة التي لا يكون بوسعه تخطّيها من دون استنشاقه، غليونه الأثري المعتم كعينيه، ورثه عن خاله التيبمكتي. ضحك بعمق ثم قال:

«لم أرث عنه فقط الغليون كما يبدو».

بالرغم من أن معرفته بإيسا سطحية جاءتْ لأجل دواعي صحفية–سياسية، إلا إنها كانت تجربته الأولى في تقصي حياة أحدهم الشخصية، لسبب ما وبعد عدة عقود عرف بأن تلك التجربة لم تكن مجرّد سبق صحفي. حين زاره للمرة الأولى، كان برفقة صديق تعرّف عليه منذ اليوم الأول لنزوله في المدينة، باعتباره من وفّر له غرفة للإيجار في منزل عمه الصياد الذي يعيش وحيداً، من يومها صار رفيقه الوحيد في المدينة يدعى مصطفى يتحدثان معاً، يجلسان على نفس الطاولة في المقهى، يشرعان في مختلف الأحاديث والمواضيع مع جميع من في المقهى من الرجال المهتمين بالأحداث التي تعصف بالبلاد في حالتها السيئة، البرلمان المزمع، حركة الجهاد التي تحدث في الأفق، المختار ومتاهته التي تزداد تقلصاً، عن معنى كل ذلك بالنسبة إليهم كمواطنين يفتقدون الماضي البعيد جداً عنهم، ذلك الماضي الذي يردده شيوخ المساجد، فيما يردد البعض عن كون الأمر الواقع مؤسفاً، فهم يمتلكون أوراقاً تثبت كونهم رعايا طليان، أميرهم يتبع الملك الإيطالي، زعماء قبائلهم الهادئة مع الحكومات الإيطالية، تكسب أصدقاء في المناصب العليا والنفوذ على أبناء

قبائلهم الطامحين لحياة أفضل.

ليس ثمة حبال تعيق تحركهم، ليست مثل الحبال التي كان يستعملها الأتراك والباشاوات، مع ذلك كان الوضع كله يسبّب الأرق للصحفي، ليس لأن النزاع عقيم بلا هدف حقيقي إلا إطالة أمد النزع، كانت الأساليب القتالية التي تحدث في الجبال، هي نفسها الأساليب التي يتحدث عنها إيسا، أساليب قتالية حدثت بالفعل ضد حكومات الأتراك والباشاوات على نطاق واسع، وصفتْ على الدوام بكونها هجمات من قطاع الطرق، الصراع البطيء المنهك للأعصاب، المواصلة الدائمة، بلا توقف في نقل تلك العمليات بسرعات متزايدة، لمناطق جديدة كل مرة، عدم التركيز على مكان واحد، خطة واحدة أو حتى هدف حيوي واحد، بل حركة دائمة متعددة الأذرع. «لا تقف في مكان واحد، كن في كل مكان». كما يؤكد خال إيسا، الصحفي سمع تلك المقولة كثيراً بعد مقابلته تلك مع إيسا، تقنية حروب العصابات، خلال الخمسينيات غدتْ هي الصيغة المحببة في الصحافة الغربية والعربية، كلما مر على مقالة تذكَر ذاك الوصف، يدرك فعلياً بأنه اهتم بها في العشرينيات، كما أنه وضع صورة كاملة عن الأمر قبل أن يتحقق على أرض الواقع، مقالاته التي لم تنشر ظلتْ هي الحقيقة التي احتفظ بها طوال الوقت، كلما تمدد ليلاً، يتذكر تلك المرة الأولى التي قابل فيها المسنّ الصحراوي، كان تحت شجر نم عملاقة، بصحبة ثلاثة من الفقهاء جالسين في الظلال المخترقة بسيوف الأشعة الشمسية المنسكبة والمنتصبة كأعمدة من الخيال، كراسي خشبية، أكواب بلاستيكية ملونة، أطباق من الطعام الخشن،

أقمشة خضراء معلّقة على الجدران المطلية بلونين الأبيض والأخضر، مزيّنة بآيات وكلمات دينية بخط الرقعة والديواني كما أصص الأزهار الموزعة بعناية على النوافذ الواطئة، المصنوعة من الآجر أو شيء من ذاك القبيل، وقف وسط الحوش، متطلعاً ناحية الصحراوي، فيما تقدم رفيقه مصطفى مرحّباً ومطلقاً السلام في ذات الوقت، في ما يشبه الفوضى والفكاهة، صافحهم على نحو وثيق ثم وقف بينهم كأنه يقف في حضرة رفاق قدماء وقال:

«هذا هو الصحفي».

إذ ذاك قام أحد المسنّين، تقدم بهدوء ناحية الصحفي، مد يديه مصافحاً.

«إذن، أنت صحفي».

«نعم». أجاب بتقشف، ربما أعجب المسنّ العيساوي، دعاه للجلوس، بعد أن مر بيده الباردة على الجميع، بمن فيهم المسنّ الصحراوي، الذي أبدى هدوءاً تاماً وحيادية في اللقاء الأول. عيونهما لم تتصل مطلقاً في البداية، كانوا يأكلون بهدوء، حين أحس بأنه يتطلع ناحيته، وجهه مليء بالتجاعيد، بشرته معتمة كما بدا نحيلاً جداً، لا يأكل كثيراً، يدخن من غليون ضخم، خلال فترة الشاي، لا يبدو عليه الالتزام الديني مثل الآخرين، يداه قويتان، عروقهما ناتئة، بدا صلباً، منغلقاً بشكل كامل، ما أثار اندهاشه لاحقاً حين لمس انفتاحه الذهني خلال حواراته معه.

تلك الحوارات سيتذكرها سلام مراد بعد أقل من نصف عقد

داخل إحدى الطرق الباريسية المعتمة، كان ليلاً كئيباً من ليالي عام 1936 عقب سهرة صاخبة مع التفسخ الثقافي الهائل الذي أعقب سنوات العشرينيات. كانت الأزقة صاخبة، عشاق ضمن كل زاوية، البرد الشديد، العتمة والأضواء مع كثافة الضباب الصاعد بجانب الجسور الغارقة في العتمة.

(10)

تناقضات الورق

بين الممرات، كنا جالسين، بهدوء. رقصات العتمة والضوء، تطاول الظلال بسبب استخدام الشموع بدل المصابيح بحيث تظهر الكتب معتمة بشفافية كالأشباح. الأرفف بدتْ مكتظة بالخيالات، مثقلة بالأحلام والطفولة.

«أحياناً تبدو الذكريات كالأحلام - لخّص المكتباتي ثم أضاف - ذكرياتي أحلام وأحلامي ذكريات - صمت قليلاً محاولاً جمع شتات نفسه - هل هذا معقول؟».

تساءل مشككاً.

«أعتقد ذلك، كيف ترى الأمر؟».

«لسنوات ظننته خللاً. حاولتُ احتواء ذكرياتي إنما الأحلام كانت تفسد كل محاولاتي. لا يمكن السيطرة على عالم الأحلام. هناك تحدث الأمور بهوى الأمور نفسها. ما لم أفعله في الواقع، أفعله في الأحلام. ما ندمتُ على فعله في الواقع، أجدني افتخر به ضمن

أحلامي. إنها الشهوة القاتمة، الشهوة. أعيد رؤية كل شيء ضمن عالم الأحلام. أدرك بأنني لم أقدم على فعله. خلال الصباحات اللامعة، أجد بان كل ذلك مجرد صراع وهمي. أحلامي وذكرياتي. معركة مضحكة على كل حال؟.

«هل ضحكتَ منها يوماً؟».

«غالباً ما أجدني اضحك منها. مسألة سخف هي أصبحتْ. أشياء في العموم لا تبعث على الضحك. إنما أجدني اضحك منها. ذات مرة رأيتُ شبحاً عند أحد الأرفف. رأيته ضمن إحدى صور الحروب. هل ترى؟ أحلام وإرهاق. يمكن لها أن تكون مؤثرة. لكنها في العموم عند إدراكها بشكل واضح، فإنها تبعث على الضحك. نزوة طفولية أو إدمان».

«ألا يبدو هذا الوصف متناقضاً، نزوة طفولية والإدمان؟».

«أحياناً، التناقضات تكون جزءاً من الحياة. على الأقل حياتي، فقد عشتهما. إدراكي كان مشتملاً على كليهما».

«إنما ما طبيعة الإدراك في هذه الحالة؟».

«لا أدري إن كان بوسعي إيضاح هذه الفكرة، ربما الأفضل تخيّل الصورة. الإدراك هو أن تعيش لسبعين سنة كاملة ثم تتذكر عدة لحظات مهمة أو تبدو كذلك ثم ترى صورة كاملة لها ضمن لحظة واحدة».

«إذن، هي مسألة متعلقة بالسن».

«معركة متعلقة بالسن. الشيخوخة تقصد، ربما. جميع اللحظات مرتبطة بشدة بملايين من اللحظات أخرى، مع تكرّر التذكّر تأخذ العملية أسلوباً محدداً. هل يمكن تسميتها بالمنهج؟ هذا المنهج قد يقود للإدراك».

«الإدراك هو إيجاد نسق أو منهج خاص بالذكريات».

«ربما هو كذلك. أعني لستُ أضع وصفة للأمر، إنما وصفاً لحالتي فقط، إدراكي كان نابعاً من إيجادي لنسق واضح يُمثّل ذكرياتي، بمرور السنين».

ربما باستخدام هذا النسق جلس المكتباتي الشاب، ليكتب سيرة سلام مراد. النسق الغامض بين الذكريات والأحلام وتكرار تلك العملية، ربما استطاع أن يقبض على الصورة الواضحة ليسجّل ما عرفه، وما تخيّل معرفته ضمن نص واحد.

الصحفي الليبي الذي رافق الجيش الإيطالي، وكتب بثلاث لغات أوروبية، عاصر أجمل الدوقات والكونتيسات كما دخل في علاقة غرامية مع نجمة السينما لاحقاً، كان يفتخر بحدث ثانوي، كهوية شخصية بالنسبة إليه، حين كان في الثلاثين كتب عن شخص صحراوي مغمور. تلك الدقائق التي اعتبرها أغلب معاصريه بالثانوية، كانت هي التي تمثّله شخصياً كأفضل اللحظات الثمينة ضمن حياته، القيمة الحقيقية الوحيدة التي شعر بالفخر حيالها، لو ترك لأبنائه شيئاً مهماً لكانت هي تلك اللحظات حتى أنه تذكّرها حين فقد وعيه، أثناء إحدى الاجتماعات خلال الخمسينيات التي أعقبتْ تأسيس

الدولة مباشرة، كان وقتها مفاوضاً باسم شخص مجهول لأجل حصد نسب جيدة من العمولات من الشركات النفطية التي وفدتْ للبلاد آنذاك. القصة كُتبتْ للمرة الثانية في إحدى الشقق البيروتية بدايات السبعينيات. كان المكتباتي شاباً آنذاك. خلال جلستنا كان يغمض عينيه فيرى تلك الأيام التي غدتْ غامضة، أشبه بالفسيفساء المبعثرة، كان يُضّيق عينيه، ثم يتطلع نحو نقطة بعينيها، محاولاً استعادة كل شيء، كنتُ أجلس بالقرب منه، أحفظ كل شيء في وجهه، تلك التجاعيد التي تزداد كثافة بشكل مدهش حتى تغدو كسطح ورقة مجعدة. ليخبرني بالمزيد عن تلك اللحظات المنتهية.

«كنت أشعر بالضعف، فيما كان رأسي فارغاً - قال المسنّ المكتباتي بلهجة بدتْ يائسة كأنه لا يزال يعيش مجدداً بدايات السبعينيات - جلستُ الى طاولتي خلال صباح شتوي، لم نكن نمتلك الكثير من الأشياء، فقط تلك النقود التي وفرتها خلال عشر سنين من الرواتب التي دفعها لي المسؤول، حمدتُ الله على أني كنت حريصاً، ربما لم أكن كذلك، كنت تائها ضمن عشرات القصص التي تركها لي سلام مراد، أتطلع إلى أكداس الأوراق التي تركها، «يا ربي، إنها عاصفة من ورق» أقول لنفسي، أفقد شجاعتي، لكنني أعيد الإثبات لذاتي بأنني ولدتُ لهذا الغرض. بعضنا يولد لهدف واحد، كان هدفي هو إتمام قصة سلام مراد. كيف؟ لم أكن أعرف بأي أسلوب، لم أكن أعرف كنت فقط أواصل جمع تلك الأوراق، إنها حياتي كلها، كنت آنذاك صديقاً لأحدهم، لا أذكر اسمه الآن أمام إحدى الشواطئ أخبرته - بلا شك كانت نبرة صوتي فيها شيء من الحزن - بأنني لا

أمتلك في هذه الدنيا إلا هدفاً واحداً هو إتمام كتابي فقط. لم أر في عينيه أي شيء ذا معنى، لم أكن أرى معنى في أي شيء آخر. كنت بصحبة رفيقتي الشركسية - لم يخبرني باسمها مطلقاً - كانت تعمل ممرضة في إحدى المستشفيات، كنت تعرّفتُ عليها داخل مكتبة بيروتية، كانت تهوى قراءة النصوص التي لم يقرؤها أحد، كتبتُ لها بضعة أشعار وصفتها بأنها لطيفة كضوء القمر، فيها شحوب طبيعي، إنها إحدى أجمل التعليقات، لأنني كتبتها تحت ضوء القمر. شركسيتي الجميلة كانت تتركني صباحاً وأنا على طاولتي، تعود لتجدني أواصل كتابة نصوصي التي جمعتها على مدى عشر سنين كاملة. ألفان وخمسمائة ورقة، مئات الصور مع عشرات الأحزمة الأخرى من الصحف القديمة والملفات التي تحوي قصاصات من الحوارات، كنت أعمل على مشروع حياتي. عقب وفاة سلام مراد جاءتني فكرة ضم سيرتي إلى سيرته في مجموعة مجلدات عرفتُ بأنها ستكون قوية تماماً مثل نصوص جيبون التاريخية. هل ترى بأنني مجنون؟ أعترف. كنت مجنوناً بالفعل، مجنوناً لكنني كنتُ محقاً. إنني إنسان محظوظ بلا ندم، أدرك بأن الحياة نفسها فكرة مجنونة وقد عشتها على هذا المنوال: أكتب ثم أكتب، كنت أكتب بلا توقّف، جمعتُ مادتي طوال عشر سنوات، لم أتوقف خلالها إلا للضروريات. كنتُ صحفياً أكتب القصص القصيرة الناجحة، أعبّر عن مثاليات مستحيلة في نظر الآخرين، لكنني كنتُ سعيداً بتلك المثاليات، ثم جاءني سلام مراد. جلس على الكرسي في المقهى ثم عرض عليّ مبلغاً كبيراً من المال من أجل كتابة سيرته، هل كنت لأرفض؟! مطلقاً ما كنتُ لأفعل

ذلك. كان يجب أن أوافق، كان يجب أن أرقص فرحاً وعلى ساق واحدة. هذا ما فعلته تماماً، رقصتُ في غرفتي تلك الليلة حتى الثمالة. كنت أتمشى محموماً، أذرع المساحة الصغيرة، غرفتي الضيقة. أحياناً أجدها أربعة في أربعة وأحياناً أخرى ألهث فيها عطشاناً تائهاً ضمن صحاري بلا نهاية. ذات مرة وقعتُ من على جرف عالي، لتجدني الشركسية الطيبة ملقى على الأرض مغمى علي! «إنني هنا، لازلت حتى الآن» أخبرها ثم أعاود الأحلام. أكل بشرهة تلك الأطباق التي تصنعها لي، إنني حصان في سباق ويتوجب عليّ أن أكمل، أجلس الى طاولتي، اذرف الدموع بلا سبب. إنني أفسد القصة، يا سيدتي إنني أفسدها أسف جداً، أكتب بجموح كحصان مجنون. تلك القصة كانت هي حياتي كلها، عشر سنين في جمعها، ثم انقرها على هذا النحو، كنت أنهك نفسي، أصابعي تتجمد، فألقيها على الآلة الكاتبة، كأنني القي بأحجار ثقيلة على بحر لا يثور. كان يتوجب على أن افعل هذا أيضاً بلا توقّف، باستمرار جنوني. كانت القصة أشبه بجبل وأنا أنحته ببطء شديد».

كان مع المسؤول خلال الخمسينيات.

«ما كنتُ لأعتبر كل هذا نصراً – أخبر سلام لاحقاً المكتباتي الشاب – مطلقاً ما كنت لأخطئ على هذا النحو الطفولي. الانتصارات مسألة أخرى لم اقترب منها، ربما كنت أعيش جزئية من تلك الأحاسيس الغامقة الشبيهة بالنصر شعرتُ بأنني وصلتُ لذروتي في شوارع باريس الليلية، أتطلع لسموات غائبة ملبّدة بالغيوم، شاعراً بأن كل ذلك خلاصة حقيقية لكل ما عشته طوال حياتي – أخذ المكتباتي

الشاب يكتب بحمى عن تلك الكلمات، في إحدى الليالي شاهد بعمق ما كان يعنيه، كان إذ ذاك على أعتاب الخمسين - المسائل لم تبد واضحة بهذا القدر من قبل، حين بدأت أعيد قراءة مقالاتي التي كتبتها قبل قرابة ثلاثين سنة، بدأتُ أعي فعلاً معنى أن يكون كل ما عشته مجرد لحظات خالية من المعنى بدأت تكتسب معاني غامضة مع الأيام».

الحادثة التي تحدّث عنها جميع من في مكاتب الدولة كواحدة من النكت الجيدة. الصحفي المخضرم يفقد سيطرته، إلا نظراته التائهة بدت للبعض كأنها تركّزعلى شيء واحد أمامه، كان يراه بوضوح، يتتبعه مراراً مع ابتسامة شاردة، فسّرتْ خطأً على إنها إشارة طمأنة كان يحاول إرسالها، لم تفارق تلك الابتسامة مخيلته الصغيرة التي اشتذتْ أثناء اشتداد المرض عليه؛ سيبدأ البحث عن أوراقه القديمة، أرشيفه الذي احتفظ به، كانت الأوراق موجودة، مصفرة ومحفوظة بعناية تامة، كأنها خريطة كنز ظلت مدفونة لدهور.

حين فتحها وشرع يقرأ الكلمات المرقونة بقوة الشباب أحس كأن روحاً احتياطية جديدة، بدأت تنمو في ذراعيه وعلى امتداد ظهره وفخذيه، تخيل بأنه قادر على القفز والركض كما شعر بتدفق الحياة في خلايا رأسه، نهض من مخزنه القديم، راح يتجول في أرجاء بيته الكبير خلال هدأة الفجر فيما العتمة تقسم الحياة نصفين، جلس على كرسي خشبي مطل على حديقة منزله، ثم شرع يقرأ بحثاً عن تلك اللحظات البعيدة بين الأوراق القديمة المصفرة، الأحرف كانت ثقيلة، مرقونة بسواد غامق يحفر عميقاً في الورق الهش، كانت بعض

الأحرف تتلاشى بهدوء، ربما بسبب النسيان، فكّر ثم قرّر أن ينقرها مجدداً، جلس الى طاولته، وضع الالة الكاتبة عليها، وضع نظارته التي تلقاها هدية من زوجته الكريمة، نزع ساعة يده، وضعها على الطاولة أمامه، كان يشعر بأنه يعود شاباً مرة أخرى يكتب التحقيقات الشهيرة، بأسماء مستعارة، لأي سبب كان ينشر بأسماء مستعارة، كان يدرك تماماً بأنه يهدف لحياة مختلفة عن التي يرغب بها، الأوراق التي أمامه، ظلت تنبض بالحياة، الحياة التي رغب بها طوال فترة مراهقته وشبابه، أفضل تحقيق لكتبه، لم ينشر. كان الأمر مؤلماً أشد حدود الألم بالنسبة إليه. الصحفي الإيطالي، حين اطلع على موضوع النص، كان مبتهجاً جداً بأفكاره العظيمة ضمن النص التي توصل إليها، بسبب ذكائه في الالتقاط. قال: «إنها قمة المقالة الجيدة، لقد أنجزت موضوعاً يجب أن تفتخر به». مشاعر الفخر التي كان يشعر بها خفية، إنما يشعر معها بالذنب العميق حتى يتصبب منه العرق البارد، كل كلمة نقرها بأصابعه كانت تحفر عميقاً في جسده، لينفجر نهر الذكريات، شلالاً هائلاً معتماً يهدر عند أذنيه اللتين تسمعان كل لحظة من تلك اللحظات البعيدة والسابحة في أثير الذاكرة. النقرات الليلية لأحداث انتهت منذ عقود، على نحو سيئ للغاية، تدفعه أحياناً لأن يذرف الدموع أثناء نومه، الإحساس الدائم بالذنب والندم، الحاجة إلى البقاء في العتمة، كما هو في تلك اللحظات.

«كان زمناً صعباً، بالنسبة إليه».

حين عاد من شروده، كنتُ أتطلع إليه بصمتْ، كمن يتطلع إليه من فوق فتحة بئر. كانت تلك هي اللحظات التي ذكرها - المكتباتي

- ضمن نصه لاحقاً ثم تذكرها مؤخراً بوضوح تام. حين كان يتجول في ذات البقعة برفقة أحد الرجال في المناصب العليا للحديث عن افتتاح شركة تنقيب صغيرة - لا يعرف السبب الذي جعله يتذكر بغتة حادثة وقعتْ قبل ثلاثة عقود - كان المسؤول قد تصبب عرقاً ثم قام مترنحاً قليلاً باتجاه ما بدا له كالمياه المفتوحة محاولاً التقاط أنفاسه المتعثرة. رأى نوارس تحلّق بالقرب منه، كان الأمر بديعاً، كأنه يسقط من مسافات شاهقة، لم يكن قادراً على التنفس. ضيوفه ظلوا يراقبون ما يحدث أمامهم مشدوهين. ظنوا بأنه سيطلب شيئاً من عامل المطعم الإيطالي، ثم ظنوا بأنه يريد أمراً مختلفاً إلا أنه تعثّر في مشيته ليسقط على الأرض ضارباً رأسه بقوة على الأرضية الرخامية.

«كنتُ أستمع لصوت الماضي في كل خطوة» قال سلام مراد متمدداً في المستشفى الطرابلسي آنذاك فيما ذبلتْ الأزهار البيضاء التي يتطلع إليها من وراء كتف المكتباتي الشاب- باريس الحافلة بالحفلات والسهرات، غرفتي الصغيرة التي تنتظرني فيها أوراقي. كلها غدتْ مجرد لحظات لا يمكنني السيطرة عليها، مثلما كنت لا أستطيع السيطرة على الوقت الذي يمر سريعاً، الوحدة القاتلة، الرغبة العميقة في فعل شيء حقيقي، التيه مع عشرات الأشياء الأخرى. كنت أحلم على مدار الساعة في كتابة نصي الكبير عن أبي، طرابلس. لم أكن قادراً إلا على كتابة النصوص الصغيرة مستخدماً الشعر الكثيف. هاينريش بارث رجل عظيم، كنتُ ازداد يقينا بهذا كلما حاولتُ أن اجعل من نصوص طفولتي أشبه بتلك الكتابات العظيمة، كنت أزداد

احتراماً له، لم أكن قادراً إلا على كتابة ما قيل بأنه شعر كثيف ضمن مقالات قصيرة. الغريب أنني عرفتُ بهذا، أصبحوا يقارونني بشعراء قدماء. أخبرني أحدهم بأنه وجد شاعراً أمريكياً من المهاجرين الجدد تحدّث عن تلك البقاع الغريبة التي أتحدث عنها ضمن كتاباتي. كنتُ آنذاك أكتب عن ذكريات طفولتي وقد أخبرتهم عن إليزا الإنجليزية بأفضل مما أستطيع. قرابة عشرين مقالة بثلاث لغات. كانت أعظم أعمالي، تمت معاملتي كشاعر رقيق، يدعونني للحفلات، رافقتُ أناتول فرانس، زرتُ بانتظام **جورج برنارد شو** ثلاث مرات سنوياً طوال خمس سنين كان يصافحني من بين الجميع خلال المناسبات التي تجمعنا، تعرفتُ على جان بول سارتر قبل أن يغدو مشهوراً. أصبح هذا مدعاة للفخر فيما بعد. هذا ما يعنيه فقط كل ما عشته تلك الفترة من حياتي. الشعور بالفخر والبهجة لتذكّرها كل ليلة قبل أن أوي إلى فراشي. أداعب بها رفاقي في طرابلس وأتباهى بها أمام مثقفي مصر الذي يمتلكون بعض المعرفة عن العالم الأوروبي. كنت امنح نفسي الحرية في فعل تلك الأشياء الصغيرة التي قد يعتبرها صوفي أو شيخ سنوسي خطايا تفوق الكبائر، المرتبطة بالكبرياء أو التكبّر. كنتُ أدرك هذا إنما ماذا يعني كل هذا؟ لا شيء مهم أو ذا بال. كانت بحق حياة بهيجة حتى هذه اللحظات لا يمكنني تفسير مزاجي آنذاك. كنتُ مهتماً بمحاولات دائمة من أجل إنتاج كتاب واحد ضخم بلا فصول، يضم كل قصصي الشخصية وتلك الأخرى التي أعرفها جيداً. ابني أفكاري بلا توقف، أقفز ما بين القصص من دون فواصل حتى اخرج دفعة واحدة مادة الشجن الذي بداخلي.

المقالات القصيرة كانت تُفرغ كل عاطفتي، إنها مشبوبة لكنها وقتية سريعة التلاشي، تخمد فجأة كلحظة رهيبة من الإلهام أو نبوءة كاذبة في نص شعري كثيف».

خلال تلك الفترة كان واقعاً تحت هالة رومانسية ظهرتْ ضمن محاولاته الدائمة عبر المقالات القصيرة من أجل فهم طفولته. كان يكتب بأسلوب جيد، شذرات تم تجميعها فيما بعد ضمن عشرات القصاصات الصغيرة المقتطعة من صحف مختلفة بعدة لغات، أعمدة صحف على مدى ثلاث سنين، بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية فيها شيء من الغموض لأحداث تبعث على الشعور بالحزن وتنامي الوحدة.

كتب سلام مراد ضمن إحدى الصحف الإيطالية هذا النص:
«ولدتُ ثانية داخل مكتبة عتيقة، كنتُ محظوظاً. عرفتُ الله بين ممراتها وفي عمق مجلداتها، ثم تعرفتُ على كتب هاينريش بارث. مسنّ مالطي شبه أعمى أرشدني للحقائق التي توجب علي معرفتها، كان ذلك لطفاً جماً تجاه الطفل الذي كنته، آنذاك. مؤخراً بدأت أتذكر ما أنا بحاجة لمعرفته، أشياء يومية بسيطة: ذرات الغبار التي تسبح ضمن سيوف الضوء المتسلل عبر الفتحات في الغرف شبه المعتمة، أو تلك الذرات العالقة على حقائب السفر الخاصة بي، كذلك الابتسامات العابرة التي هي بالأساس غير موجهة لي، الأعين الجليدية المليئة بالحزن، حتى نمو الظلال أخذ يدفعني للتذكر تلك السنين المغرقة في الغموض. أتسأل بصمت: متى يعرف الإنسان بأنه عاش حياة غامضة؟ أية ذكريات تؤكد هذه الحقيقة التائهة ضمن

دوامات عدم المعرفة حتى يؤكد بأنه غامض؟ كنت حتى الثلاثين اعتقد جازماً بأنني مثل كتب هاينريش بارث، أرسم أمام الأشخاص الذين يحادثونني لوحة لا تحمل أية تعقيدات، أشبه بلوحات العظيم ليوناردو دافنشي، أعتذر - لعدم تصديقي للوحات دافنشي الخيالية - فالحياة معقدة جداً، تماماً مثل اللوحات الغامضة التي شهدتها داخل إحدى المعارض الباريسية. كنت بدأت أفقد إيماني بكل شيء. داخل حديقة أوروبية اكتشفت بضبابية بأن الوقائع كلها مزيفة. المكتبة مثلاً ليستْ هي الحياة، إن كانت القيمة هي في الأخلاقية، فالحياة ليستْ هي الأخلاق. إننا نعيش الحرب في حياتنا يومياً، نمتلك نفساً تسعى بجموح لجمع ما لسنا بحاجة إليه.

إنه تناقض بسيط لا يراه الطفل داخل المكتبة، يقرأ عن هاينريش بارث وهو يحشو مسدسه متهيئاً لدخول معركة مع البدو، لكنه في ذات الوقت يكون جالساً على كرسي خشبي، يتطلع إلى الكلمات، في شبه عتمة محاولاً أن يكون حاضراً هناك، لكنه لا يكون هناك على الإطلاق. هذه «الازدواجية - التناقضات» تكون فظيعة حال اكتشافها، تماماً كما تكون الحقائق التي تلغي أوهامنا الكبرى حول قضايا، ظننتها لوهلة مصيرية. ذات مرة كنتُ مع مسنّ مالطي، ولد في طرابلس، كان في التسعين وعيناه أخذتا تسيلان حزناً على طفولته، أخبرني بأنه حين كان صغيراً آمن بالعالم من خلال كتب هاينريش بارث، لكن العالم لم يؤمن به، لأنه لم ير قط ما تمناه طفلاً. كنا جالسين بين ممرات المكتبة، في يد كل منا جزء من مجلدات رحلات هاينريش بارث».

بين الممرات شبه المعتمة، أعيد كتابة هذه الأوراق مستفيداً

من عشرات النصوص الأدبية التي كتبها سلام بدايات القرن الماضي بأسماء مستعارة، أصولها المكتوبة بخط يده - مع النسخة النهائية والمرقونة فيما بعد - لا تزال موجودة ضمن المكتبة مع تصحيحات كثيفة شكَّلتْ أسهماً باهتة متداخلة أشبه بشبكة عنكبوتية. جمعتها ضمن ملف واحد وضعته في الرف الخاص بجوار سبعة ألبومات مختلفة تضم صوراً تاريخية لأشخاص عبروا المنطقة منذ أكثر من القرن والنصف، بلا أدنى شك كانت تلك جزءاً من مادة مجموعة من اجل كتاب تاريخي بأسلوب أدبي. ذكر هذا خلال إحدى الجلسات. الكتابة عن صورة المنطقة منذ قرنين، اعتماداً على ما يمتلكه من شذرات كتبها سلام مراد، صور التقطتْ بكل أنواع الكاميرات، دراسـات وقصاصات صحف، كتابات شخصية بـأوراق مصفرة، المذكرات الشخصية من أجل إبداع عمل أدبي رائد. كان يمكن أن يخلق صورة واضحة للمجتمعات الصغيرة التي كونتْ فيما سمي بعد ذلك بليبيا. الصورة الأكثر صدقاً من المعاجم الاستعمارية أو البروبغاندا السياسية التي جعلتْ من الدولة كياناً شبه ديني أو تلك التي قادتْ الأفكار القومية. قليلة هي الأعمال التاريخية التي تبحث ضمن تركة الدول التي ولدتْ بفضل جيل كامل - نشأ أثناء ذروة الفترات الاستعمارية - ليجد نفسه بين عالمين: القديم الذي ولد فيه، والجديد الذي أصبح في خضمّه. لفهم تلك الصورة الكاملة بدأ البحث عن تلك الفترة التي حفلتْ بالكثير من الرحالة القادمين إلى المنطقة، رؤيتهم للمجتمعات خلال عصر سبق هبوط الجيوش الأوروبية بوقت قصير. كتابات الرحالة كانت تُظهر ذلك المجتمع

الفعلي، قبل تأسيس السلطات ذات الحكومات المحلية أو الإدارات شبه المستقلة فيما هي ترزح تحت سطوة الاستعمار. رؤيته لم تكن واضحة في ذلك الملف.

ضمن مذكرات **الصحافي الشاب-المكتباتي** فيما بعد، وجدتُ بعض الصفحات المفقودة، جاهدتُ طويلاً لأجل إيجاد تكملة النص الذي أصفرّ تماماً بين أرفف الكتب والمجلداتْ، وهو ما وجدته لاحقاً ضمن كتاباته الصحفية التي استمدتْ الكثير من تفاصيل حياته الشخصية خلال تلك الفترة، بالرغم من كونه عملاً مرهقاً، لكنني في النهاية استطعتُ أن أمنح النص بعض التناسق بإيراد ما يمكن أن يكون تكملة للسيرة السابقة.

(11)

المكتباتي

حين ولد قبل سبعين سنة من تاريخ أول لقاء لي به. كانت البلاد في حالة سياسية مزرية. القوات الفاشية تدك معاقل المقاومة الشعبية، لشعب تعلّم العيش بأساليب علي الزيبق، فيما كان القادة الطليان مندهشين من التشابه الهائل بين أفراد الشعب الليبي، حتى أنهم لم يعودوا يثقون في الأوراق الرسمية التي حرروها لهم، من فرط التشابه. كانوا دوماً ميالين للمقاومة، الشعب الليبي كله مسلح. بمجرد حصول احدهم على السلاح كان ينطلق إلى جبهات المقاومة ملتحقاً بقادة الجهاد، لم يكن الطليان بقادرين على إيقاف هذا الجنون، كان كل الشعب مسلحاً، معسكرات تم إسقاطها وحيازة ما فيها من السلاح، خلال أحداث عرفت في التقاليد الاستعمارية بالانقلابات السياسية عام 1915 بالدعم القادم من حكومتي تركيا وألمانيا، التهريب! تهريب كل شيء بطريقة ما كانوا دوماً يجدون أوراقاً رسمية لتنقلاتهم كمواطنين كاملي الأهلية لا يستطيع مراقبو الهيئات الاستعمارية من ضبطهم، لم يكن بوسع المراقبين فعل ما هم موكلين بفعله نظراً للتشابه الكبير

في الأسماء، الملبس واللون. لم يستطيعوا التفريق بين أبناء الشعب. هذا كان يبعث الاستغراب في النفس. الفكرة الأقرب للأسطورة في التشابه الليبي. جسده يبدو منهكاً مصفراً كورق المجلدات. التاريخ يؤذي كل ذرة فيه لكنه لا يتوقف عن تتبعه كالمهووس. غارقاً بين المجلدات الثقيلة على وجهه تلك الحماسة المتجعدة كثمرة نضجت من العام الماضي.

خلال إحدى الليالي حلمت بأنه صار مجلداً على الأرفف. كنت أقرأ صفحات حياته. كانت الصفحات صفراء حائلة. ربما بنّية باهتة تفوح برائحة ظللتُ في الحلم أصفها بالماضي. بدا دوماً أكبر عمراً من الكاردينالات والديكتاتوريين ضمن صمت المكتبة. صباح يوم شتوي أخبرته بالأمر فأخذ يضحك ضحكته المكتومة التي ترج كامل جسده ثم أخبرني بأنه لا يتذكر طفولته مثل أغلب أبناء جيله، ممن ولدوا بين منتصف الثلاثينيات وحتى أوائل الأربعينيات. أغلبهم لا يتذكر إلا القليل من أحداث طفولتهم، بما يشبه الضباب أو كالسحب الريشية المتلاشية ثم أضاف لا بد بأنه فعلاً عاش طويلاً.

حاول مراراً أن يعزز ذاكرته الشخصية بالصور القديمة المنشورة بالأبيض والأسود، بالفيديوهات من الأرشيف الاستعماري الايطالي، بالمقالات التحليلية التي نشرت في الصحف آنذاك، باللقطات التهكمية المنشورة ضمن البطاقات البريدية الفرنسية عن الحضارة الرومانية الجديدة داخل ليبيا المستعمرة، بأحاديث الكبار في السن بالأشعار الغنائية المليئة بالرثاء مع سوء الحظ، عبثاً! لا شيء حقيقي هناك بالرغم من كل تلك الوسائط الهائلة. الحياة الليبية لا تتغير كثيراً

خلال الحروب، إنها حياة رتيبة سرعان ما تعود لطبيعتها في حال تغيّرت لسبب ما.

هكذا كتب ثم أضاف: لا بد بأنني قضيتُ طفولة رتيبة. مطلقاً هو لم يكن قادراً على تذكّر طفولته الأولى، حتى انه لا يتذكر ما عاصره من حياة والده الذي قتله الانكليز كما يعرف وظل يعرف لمدة طويلة. القليل الذي عرفه عن تلك اللحظات المؤسفة، قام بتجميعها من ذكريات أغلب من رافق والده، من دون ما حفظه الآخرون عن الفترة التي عاشها والده، لم يكن ليعرف نفسه، لذا غالباً ما يؤكد بأن معرفة الذات هي مختصر حياته كإنسان، مختصر حياته الشخصية تكمن في تلك الأحداث القليلة التي يذكرها عن ماضي أهله.

والده وجده!

أشياء أخرى تكوّن شخصيته، عشقه لدقائق الأمور رؤيته لمنظر الأرفف المكتظة حين تقع عيناه على عناوين معيّنة فيما يخص الأحلام الغريبة التي تراودني بشكل منتظم، كان يستمع إليها باهتمام، بالرغم من ضحكته المكتومة التي تجعل من جسده مرتجاً، كنت أراه دائماً على نحو غريب، ربما بسبب تأثيرات القراءة كما ظننتُ في المرات الأولى، الأحلام المتكررة، الكوابيس التي تعيد ذاتها، حتى لو كانت لأشخاص آخرين فإنه يهتم بكل تفاصيلها الصغيرة حتى يبدو كأنه رأى الحلم أيضاً، لا يمتلك في مكتبته أي كتاب عن تفسير الأحلام، مع ذلك معرفته بالرموز التي تخصه، بسبب الحكايات التي يعرفها عن ماضيه، تجعله مدركاً لما تقوله الأحلام، بل مدركاً للإشارات التي يظن بأنها تأتي من عالم الكتب، كما تأتي الأشباح لتزوره بين

وقت وآخر، دون أن يهتم لها، ففي أغلب الكتابات الرصينة ذكر للأشباح وهو أمر ظل يراه في الحقيقة جوهر قراءته للأبسنية كما كان يعتقد بأن معرفته بالواقعية، الحياة حين تستبد بها الأحلام المتعلقة بالواقعية، فإنها تصبح نوعاً فريداً من حياة الأشباح. موجودة وغير موجودة.

هكذا تحدّث في إحدى الليالي ثم غرق في تفاسير مقتضبة عن صوابية الأخطاء حين تترك ظلالاً في المجتمع المولع بالأخطاء التي تبدو صائبة، مدركاً بأن للأمر علاقة قوية بالأحلام والواقع. تصديق الشائعات كشهوة يرغب الناس في استغلالها والاستمتاع بها. بسبب هذا الرأي لم يكن مرتبكاً، بل لم تتغير حياته للحظة حين شاهد والده الميت واقفاً بين الأرفف بملابسه الكاكية القصيرة كأحد الكشافة القدماء، مستنداً الى الرف الخاص بمجلدات الحروب المصورة بلغات مختلفة. تكرر الأمر عدة مرات. في ما بدا دوماً حلماً لا يفقد صلته بالواقع مما دعاه للاعتقاد الجازم بوجود الأشباح في المكتبات عموماً، كانت الإضاءة في الممر بين الأرفف خافتة. تجاوز للتو الخامسة والأربعين. كتب نصف دزينة من المذكرات غير المنتظمة، أكمل قراءة مجلدات مدينة الرب الرمزية باعتبارها حلماً آخر غير واقعي أو رغبة حقيقية لرجل أفريقي تائب عرف المكتبات متأخراً بدوره.

حين شاهد الضوء المتوهج متمثلاً في شخص مستند كأنه بانتظار حافلة في المكان الخاطئ أو كما بدا له مطرقاً في التفكير العميق حول أمر ما لا بد يؤرقه، ظل جالساً الى طاولته، دون حراك

يتطلع إليه بصمت. تطلّع لمدة تصل لأربع ساعات متواصلة في اليوم الأول قبل أن يغلبه النعاس، فيجد نفسه يشرع في القراءة من مجلداته القديمة ثم يفتح عينيه مرة أخرى ليتطلع ناحية الرجل بالقماش الكاكي المستند، ليجده بذات الوضعية التأملية، لم يكن يعرف إن كان يحلم أم إن التباساً حدث! فقد الواقع، غاص في الأحلام أو فقد القدرة على التفريق بينهما! حتى باقترابه من الشبح، لم يكن يختفي. كان بوسعه مد يده عبر جسده النوراني دون أن يختفي. نظرة باردة إلى الأرفف. أمر غريب أرقه قرابة ستة أشهر كاملة. ثم حدث فجأة تحت وطأة الملل والخوف من الجنون الذي استبد به في إحدى الجولات، حدث أن فتح مجلداً كان في الرف بالقرب من الشبح، ما إن رفعه حتى تلاشى الشبح كالدخان. عندها فهم الإشارة كما أكد لاحقاً. داخل المجلد الثقيل الذي هو عبارة عن تجميع لمجلات أوروبية متخصصة بتصوير الحروب في أكثر من مكان في العالم. وجد ما ظل خيالاً طوال العقود الأربعة. أصحاب المجلة بلا شك مناهضين للانتصارات التي أحرزها ونستون تشرشل. أغلب الصور كانت تظهر القائد العظيم، رئيس الوزراء المنقذ في حالات سخيفة لا تليق بصيته المثير للمشاعر كأحد القادة المنتصرين. مركّزين على عمره الحقيقي. تجاعيد وجهه، ملابسه المهملة عند الياقات، ترهل عنقه، ابتسامته الشمعية المتكلفة.

خلال الاستعراضات الكبيرة تحية للجيش الثامن المصطف متعباً من أثار الاحتفال بالنصر النهائي الوشيك كما يظهر برنارد لو مونتغمري قائد القوات البريطانية في أوروبا يضغط على عنقه بأصبعيه

كأنه مختنق من كل المشهد. هو ما ظنه المكتباتي غمزاً خفياً في قيمة النصر أو هكذا أراد أن يغمز في نفسه. في أعماقه البعيدة شعور انتقامي غامض من قتلة والده ليظهر سروره العميق برؤية الإرهاق في ملامح المسنّ تشرتشل كأي مسنّ ضعيف قضى فترة عصبية لمدة ستين شهراً هي العمر الافتراضي للحرب العالمية الثانية، ليجمع جنوده المنهكين في استعراضات تبحث عن معنى النصر في الصراخ والاصطفاف أمام شعب تعوّد على العيش بأساليب علي بابا. الصدف تواصل الحدوث. داخل تلك المجلة الشهرية المهتمة بصور الحروب وجد واحدة لجندي ليبي منهك ضمن الجيش الايطالي يعاني سكرات الموت. ضمن إطار الصورة كل شيء جامد. الزمن، الضوء والجندي المصاب. الألم لا يزال جامداً في ملامحه الباهتة في غمرة الفيض الشمسي للصحراء فالصورة مضاءة بشدة. الملابس الكاكية التي غدت بيضاء متوهجة. البنادق التي تظهر كأنها لجنود متحلقين بالقرب من الجندي المحتضر. الأحذية العسكرية. المسافات المفتوحة. الأعين التي تتطلع بنظرات باهتة. ربما غير الواضحة لأشخاص لا شك يعرفون القتيل حق المعرفة.

لا بد أن الحزن هو ما يشعرون به أو الرعب من مصير مشابه. الجندي المصاب بملامحه المتألمة ملقى على الأرض. في وضعية منتهكة لا تراعي النظافة أو إثبات الشخصية. أكد المسنّ بأنها الوضعية المنتهكة التي يصلها الجميع من دون شك. الموت على الأبواب. بهدوء وثقة ينتهي كل شيء. وحيداً إلى العتمة أو وحيداً إلى النور. دائماً وحيداً.

بالرغم من النظرات الباهتة المحيطة به من كل جانب إلا إنه لا يرى إلا أمراً واحداً. هذه اللقطة التي ركّز عليها المصور المجهول لا شك تلغي قيمة أي نصر في نظر المسنّ. ربما في نظر المصوّر أيضاً، لا تعبّر عن أي نصر فعلي، بل تزيد من رقعة الهزيمة الحقيقية التي مني بها قبل إدراكه ما حدث واقعاً!

فكّر المسنّ المكتباتي متشككاً كالعادة بأن كل هذه الأحداث مجرد خيالات غير حقيقية حين عاد إلى وعيه. مشاعره المتدفقة تجاه الماضي، غدت مثل النظرات الباهتة في الصور التي التقطت قبل أكثر من سبعة عقود. أكثر غرقاً في الخفوت. السنوات الطويلة فعلت فعلها! الوحدة القاسية. الحزن الباهت في بهرة الشمس. ذات الحزن، كان يقطن بين أرفف المكتبة المعتمة فيما الضوء الخافت يستمر كابياً في التدفق البارد كإنارة حانة مهملة. التطلع إلى الصورة. أمر استمر معه لسنوات طويلة. التفاصيل تبدو أقرب إلى التوهّم. ظل ينساها على الدوام. يهرع إثر ذلك إلى المجلد الذي يضم المجلات المختصة بصور الحروب. يضعها على طاولته يتطلع مجدداً إلى الجسد المصاب في الجهة اليمنى. الملابس الكاكية عليها بقع الدم الغامقة بشكل تقريبي.

هل كانت موجودة في السابق؟!

هل رآها؟!

الوجه المتألم في التراب. الساقان النحيلتين، متقاطعتين. الأسنان الناصعة، هل هي ناصعة حقاً ؟! مع الألم هناك إرهاق ثم الكثير من

الإرهاق. ربما عدم فهم. يصعب التحديد. الأغلب هو ألم حاد مخترق مفاجئ، مزعج أشبه بوخزات لا تكف. أثناء إحدى تطلعاته الدورية فكّر بأنها مستمرة لا تزال حتى بعد وفاة صاحبها. عبر الأثير من خلال الصورة. أحس بوخز حاد في صدره. شيء من الذكريات والأحلام. جالساً في بقعته المعتمة أخذ يحلم بمزيد من الأشباح. سنوات تمر ببطء شديد. وجوه عابسة تنظر إليه فيما هو جالس. قراءة الكتب، دقيقة لكل صفحة. ستون صفحة. ساعة مرت. إرهاق، متعة مستمرة. يموت أشخاص، يولد أشخاص. صفحة عن التاريخ. نصر جديد. لا شيء إلا نصر جديد بأحذية عسكرية تجلب الهتافات. جموع بشرية مبتهجة. مزيد من الصور، مزيد من التعساء يرافقهم سوء الحظ. لا بد من قراءة كتاب آخر عن الحدث كله. مجلد توينبي، تاريخ مختلف. نصر جديد بأحذية لامعة. بوسعك أن ترى وجهك فيها مبتسماً أو باكياً. كان يجلس طوال الوقت، تمر الساعات بفصول الكتب والمجلدات فصلاً إثر فصل. الصفحات المصفرة من أيام برنارد شو، الهوامش الصغيرة عن تلك الملاحظات التي تُكتب كأنها من تحت الأرض. الغرف شبه المعتمة، الممرات البعيدة المضاءة بخفوت. كان دائماً يجده واقفاً بجوار إحدى الكتب. ليس دائماً نفس الشخص، ليس دائماً نفس الشبح إنما غالباً يعود الواحد مراراً. الكتاب تلو الكتاب. الأرفف المغبرة بمجلداتها القديمة. كان يخرج إلى طرقات المدينة كل مساء. لطالما قضى وحيداً تحت الأضواء الكابية. الوحدة أسلوب حياة. القوة المبذولة في الاحتمال، الوحدة. أكثر من كفالة عشرة أشخاص. كان سعيداً، ظل كذلك. لكنه لا يكتب عن السعادة. لم

يحدث يوماً أن فعل. مهمته كانت أكثر قيمة من العيش في السعادة. كان يتوجب عليّ أن أصدق كلامه. عيناه متألقتان. تصميم هائل طوال سبعين عام في عمل متواصل. أصابعه أقوى أجزاء جسده، ربما أكثر من عينيه المتألقتين بالحياة. أصابعه المستدقة قوية كأقلام الرصاص. عيناه تبدوان في لحظات أكثر اتساعاً من المحيط. محيطان شاسعان من الأسرار والغموض. حين يغمضهما في فترة شبابه، كان يرى ضباباً شبه متلاشي، كان يعرف بأن الضباب يخفي جسداً، والده. في مكان فسيح تحت سماء مفتوحة، ضوء مبهر. كان يستيقظ مرتعباً غير قادر على تذكّر كل ما حدث. يتذكر بضع كلمات غير مترابطة عن التيه، الوحدة وموت الأحلام. تلك الصورة في المجلة الأوروبية هي التي تُظهر مدى بشاعة ما حدث.

هذه الأفكار كانت دوماً تجول في رأسه، لم يكن يفهم أكثر ما يقع حوله من أحداث متسارعة. الفهم! لم يكن يفهم نفسه أحياناً! ذكريات معتمة! يتذكر طفولته في الغالب عندما كان يلعب البلية مع الأطفال الآخرين بين الأزقة والخرائب التي خلّفها مرور الدبابات الأوروبية أثناء الحروب الشرسة، كما يتذكر الرغبة الدائمة لوالده في العودة إلى ليبيا بعد فترة من المكوث في مصر الملكية. يستعيد صورة والدته الصامتة على الدوام وهي تحاول تحضير الوجبات الصغيرة بوجهها الشمعي الخالي من المشاعر. لم تبتسم مطلقاً. في زمن كانت العائلات فيه تجاهد كي لا تجوع، أخذت والدته على عاتقها تربية رجل، أي رجل.

«حين كنت أصغر خلال مراهقتي - قال مبتسماً كطفل سعيد -

كنت أحلم بأنني جالس مع جورج برنارد شو، كنا نتحدث بعمق عن ذكرياتنا الخاصة الحميمة، في الحلم كان يبدأ بسؤالي عن اسم والدي، فأخبره، يكرر الاسم من بعدي إنما خطأً، فأتدخل محاولاً تصحيح نطقه الخاطئ لأكتشف بأنني أنسى اسم والدي، أقضي عدة لحظات محاولاً تذكّره. صباح كل يوم أعيد تذكّر الاسم، أكتبه مراراً كي لا أنسى ثم حين بلغت الستين بدأت أتذكر الحلم، لأنه بات يراودني دائماً، بذات الوتيرة أجد نفسي في الخامسة عشرة مع أديب أحبه يسألني فأنسى، كان الأمر يبدو مرهقاً صباح كل يوم، إنما كنت كل يوم أزداد ثقة بأنني أتغير في أحلامي، وأن ما أرى نفسي فيه مراهقاً ليس حقيقياً، أعني بأن الحلم نفسه ليس بحقيقي فحين تعرفت على كتابات الايرلندي كنت تجاوزت العشرين، حين تذكرتُ هذا ظننت بأن من كان يسألني عن اسمي هو أبي نفسه، كان يشبهني تماماً، ربما كنت أنا، أسأل نفسي فأخطئ ثم أصحح خطئي».

لماذا الايرلندي؟! تساءلتُ في نفسي، لم أجد الشجاعة لسؤاله مباشرة. بالرغم من أنه اكتشف جورج برنارد شو أثناء الخمسينيات اللبنانية، أي بعد أن تجاوز العشرين، إلا إنه تصرّف دائماً كأنه يعرف كتاباته العظيمة منذ طفولته. لا اشتراكي لا اجتماعي. بدايته الفعلية في تبنّي أفكار العزلة كانت بعد سن الثلاثين، قضى العشرينيات في ملذات هائلة من مرفأ لأخر. الخمسينيات، الستينيات حتى منتصف السبعينيات حين بدأ يشعر بأنه يفقد الكثير من ذاته، كان ذلك بعد فقدانه لواقعه فوق الأرصفة البيروتية مع بداية الحروب الأهلية في أغلب المدن التي كان يعتقد بأنها تمثّل كل شيء بالنسبة إليه. ذات

الفترة التي عاد فيها إلى بنغازي منكسراً، بشكل نهائي ليرسم الخطوط الأولى لمكتبته الخاصة. المكتبة التي استلمها من العم إبراهيم، صديق قديم لوالده، كان على معرفة شخصية بـ: **محمد علي بو قعيقيص** صاحب المكتبة الأولى في بنغازي بدايات العشرينيات من القرن الماضي. كان صديق والده فزانياً مسنّاً مولعاً بالجلسات الصوفية، يهوى جمع المخطوطات التراثية.

«أحاول فهم الزمن بتلك البساطة بعيداً عن التحذلق اللغوي - قال شارحاً - البساطة التي فهمها الناس زمن القديس **أوريلليوس أوغسطينوس** إبعاد تلك الأوهام الصغيرة المتعلقة بالتعقيدات اليوم الواحد. أمرٌ بسيط آخر فهمته: هناك ماضي، حاضر ثم هناك مستقبل. الكماليات والجزئيات ليست متناقضة، لكل جانب أهميته الخاصة. ما يهمني في حالتي هو الماضي لأجل معرفة نفسي بطريقة أكثر فعلية، لأجل التطلع إلى الحقيقة كما يتوجب عليّ التطلع إليها، أنا. عدم فهم الزمن كان يلغي هذا. حين أقرأ ما تكتبه فرجينا وولف. حين أحاول تخيّل تلك الكتابات التي تجعل من الزمن شخصية رئيسية ضمن النصوص بحيث يكون بوسعك رؤية الأمر على نحو مختلف دائماً. كل هذا متعلق بالذاكرة، بالحشد الهائل للأحداث والأزمان في زمن قصير واحد قد يصل ليوم فقط، مرهق لم أكن لأنجو منه بسهولة. ما كنت لأخرج منه بشكل طبيعي. فور بلوغي الخمسين، أخذتُ أرى تلك الأحلام القبيحة، أعني الكوابيس، ذات الهلوسات القديمة التي وجدتُ نفسي في دوامتها خلال فترة عزلتي الأولى في المكتبة. الأشباح التي تظل حية بين أرفف المكتبة، الضوء الشاحب

للوجوه المسالمة، الأعين المطفأة. عندها أحسست بضرورة معرفة نفسي بشكل أفضل. إذ ذاك كانت بيروت تموج في الحروب الأهلية، عرفت بأنني معني بكل تلك التغيرات العنيفة، بيروت كانت آخر منطقة وصلتها. كنت أعبر الكورنيش، حين رأيت مكتبة، أتصدق هكذا؟. كشكاً مليئاً بالكتب. وقفتُ أمامه. كان هناك شاب قوطي شاحب البشرة، يدخن بدا لي غريباً في ملابسه الجلدية السوداء، شكله المتمرد، تطلعت إلى العناوين، كنت قبلها أشعر بالحزن الشديد، كنت على مشارف ميلادي العشرين، أخبرني بأنه انتظرني طويلاً، كان يتحدث بشكل غريب، يحدق بعينين معتمتين. حين أعيد التذكر أعتقد بأنني من هناك بالذات دخلت المكتبة».

ليس حلماً، كان ذلك رهيباً جداً. كان ذلك ما فكرتُ فيه، كنت بدأتُ أعي ما يحدث بشكل ضبابي، ليس مصادفة على الإطلاق كل ما حدث. إننا لا نعيش في مكتبة فقط، إنما داخل عالم موازي كالأحلام، اللا واقع، تطلعتُ إلى المسنّ وهو يفكر بهدوء، الهدوء المتكرر ذاته الذي عشته لسنوات، ذات الأحاسيس والظروف. قبل سنوات قليلة، كنت أعبر إحدى شوارع بنغازي حين رأيت الأضواء عند الكورنيش، كانت الطرقات خالية، أمواج البحر تهدر على دفعات، فيما أخذت الرياح تنساب باردة. كنت يائساً بشكل كامل، كما أنني فقدتُ صديقاً قبلها بمدة بسيطة، دون أن أتوصل إليه، كنت حزيناً بشكل كامل، مع استماعي للمسنّ بدأتُ أشعر بالدماء في عروقي ترتج بعنف، بضغط هائل في صدغي، لا يمكن أن يكون هذا مصادفة. كل شيء كان متعلقاً بدخولي إلى المكتبة.

إنها البداية والنهاية معاً. خلال تلك الليلة رأيت أمامي كشكاً عند الكورنيش، مضاء مليئاً بالكتب، وقفت أمامه، كانت النجوم تلمع على سطح المياه، تتقاذف مع الأمواج لتتكسر على الصخور المعتمة، وأضواء المدينة تنعكس بألوانها المتماوجة على ذات الأمواج فيما استمرت الرياح بالانسياب هادئة، باردة في أنسام لذيذة، مبهجة كلمسات سحرية من روح المدينة، كنت خرجت من مكتبتي الخاصة الصغيرة، على بعد شارعين في سوق الحوت، متأكداً بأنني عبرت الكورنيش قبل ساعة واحدة لتناول عشائي، في نفس المنطقة التي كنت أقف فيها متطلعاً لانعكاس أضواء المدينة على الأمواج، مطلقاً لم يكن الكشك موجوداً بهذا الزخم الفريد، كانت الكتب بأغلفتها المبهجة تبدو على الأرفف المنتصبة أمام الكشك، رائحتها الثقيلة التي تغلب رائحة البحر، كان أمراً كالحلم، هادئاً، سلساً، تقدمتُ بهدوء، فرأيت تلك المجلدات القديمة التي لطالما حلمتُ بها، لمستها بأصابعي، كنت أستمع لهدير الأمواج، لصخبها المتعدد، المتلاطم، فيما بدأت أقرأ العناوين التي على الأغلفة، المصنفة بنظام غريب عليّ، لم أكن أعرفه أو صادفته حتى تلك الليلة: عندها وقف أمامي شاب غريب الهيئة، كان يدخن، بمعطف جلدي، تتدلى السلاسل من كتفيه ومن وسطه فيما تتربع جمجمة بعظمتين متقاطعتين على كل من كتفيه كأوسمة عسكرية، كما أن شعر رأسه كان مدبباً على هيئة إبر غليظة، وقد بدا قوطياً. أخبرني وهو ينفث دخان تبغه في سماء المدينة بأنه قيّم المكتبة، وأنه انتظرني طويلاً.

«يا ربي - هتف وهو يلقي بعقب سيجارته في شاطئ بنغازي

المضطرب فيما كنت أقلّب الكتب والمعروضات الغريبة – تأخرت انتظرتك طويلاً هنا».

هكذا تذكرتُ حلمي، فيما واصل المسنّ شارحاً.

«لا بد بأن الأمر كله متعلق بالمكتبة بشكل عام – نبهني مستدركاً ضمن هذياناته، شارحاً ما بحث عن تفسيره طويلاً – النسيان الاختياري ممكن بلا شك، تدمير الذاكرة ليس بالأمر الصعب كما يبدو للوهلة الأولى. يكفي وقوف الإنسان في المنطقة الفاصلة بين اليقين والخيال، فقدان القدرة على التفريق بين الحلم والواقع. بعض الأشياء تحدث في حياة بشكل جزئي، بحيث لا يستطيع أحد تأكيد اكتمال حدوثها من عدم اكتمالها. تمتلئ الحياة بالتناقضات، مع تكرار تلك الأحداث المتناقضة. الصور الذهنية. الأفكار المتوالدة. تُجهد الذاكرة. يظهر الشك! هنا يبدأ النسيان عمله. هذا أمر يمكن حدوثه حتى للجماعات والشعوب. تبدو هذه خسارة كبيرة للبعض لكنها جائزة ثمينة للبعض. تولد المكتبات، بكتابة التاريخ. مكسب حقيقي خصوصاً لو كان الإنسان قارئاً ذا هدف. فإن كان هدف الشائع من القراءة هو: إيجاد الذات بالمعرفة في أغلب الأوقات والحالات أو البحث عن التاريخ الشخصي، الماضي من أجل فهمه وهو ما يعني إلغاء الذات التي تبحث عنها، عدم الرضا بها، لأنها مؤقتة وغير مكتملة. إعادة بناء ذاكرة القارئ المعتمد على ذاكرته هدف بالغ الوضوح. من دون تلك الذاكرة، القراءة تصبح كالوعاء المثقوب. هذه النوعية الشائعة من القراء، تعمل على البحث عن معلومات تمثّل رصيداً في حياتهم الفكرية الخطابية أو الكُتاب، هؤلاء لا يصنعون ذاكرة حقيقية جديدة.

هناك نوع مختلف من القراء. تمثّل القراءة في حياتهم، أمراً أكثر غموضاً. مهمتها الأولى ليس بناء ذاكرة، بل إعادة بناء الشخصية بأكملها. لا يمكن أن يتحقق هذا بوجود الذاكرة القديمة. لا بد من تحطيم تلك الذاكرة. الكتب فقط لا تستطيع تحطيم تلك الذاكرة القديمة، بل تعزز من قوتها، كل كلمة تعتبر شرارة تضيء عشرات الذكريات، . مهمة الكلمات في أكثر حالاتها قوة هي إعادة تهيئة الشخصية البشرية، من حال إلى حال مختلف. أمر عشته على نحو رهيب. تغيير الشخصية مرتبط تماماً بفقدان الذاكرة، كما يتحول من مجرد حديث عادي إلى صراع كامل الأركان مع الخيالات القديمة، الأصدقاء، العائلة، الكتب، صفحة صفحة، حتى تلك اللحظة التي تنجح فيها بقراءة كتابك المفضل منذ عشرين سنة كأنك تقرأه للمرة الأولى، كل كلمة متحررة من تاريخك الشخصي، من العلق الذي التصق به مع السنين، جميع لحظات الحزن، الخيبة والجنون، جميع تلك الكومة من السنين التي ترى بأنها تحمل الشخصية **القارئ- الباحث** عن الذاكرة لأجل حشدها كرصيد معرفي. كم تبدو هذه الرغبة مريضة، إنها رغبة غير نقية. كم يبدو هذا تكبّراً مقيتاً، مباهاة فارغة، تليق بأناس استعراضيين فارغي العقول والقلوب، لا تمت للقراء الحقيقيين بأية صلة. القراء المصابين بالشك الدائم في تلك المعارف، بالتدقيق الشخصي، النظر لمدى ما تفعله الكلمات في حيواتهم الشخصية. إذ كيف يمكن فهم **الشيخ والبحر** دون معرفة معاني كلمات مثل الهزيمة، التدمير، سوء الحظ في حياتك الشخصية؟ كيف يمكن فهم تفاصيل كتاب مثل: **نافذة المكتبة** دون التورط ضمن

الدورة الروتينية للحياة الشبحية، لحماً ودماً؟ إنها كلمات محددة المعاني ولدتْ في حالات محددة، تبحث عن قراء محددين، كنت أعدّ نفسي كي أكون أحد هؤلاء، لتغدو حياتي متوافقة مع سلسلة قراءاتي! أن أغدو قادراً على استخلاص الحقائق، من خلال أسطر الكتب، أتعرف؟».

عندها اشتعلت تلك الابتسامة، الهادئة المشوبة بنظرة مصممة، تطلع إلى النافذة الخيالية، إلى القطرات الثقيلة اللامعة بألوان الطبيعة وضحكات الأطفال العابرة في الخيال ثم أضاف بحنين:

«كنت أرغب فعلاً في هذا».

«تريد النسيان».

هكذا قلت في كلمتين، لم أعرف سبب اهتمامي بهما، إنما كنت أدرك بأنني لم أكن أتساءل، كنت قرأتُ عنهما في إحدى الملخصات التي أنجزها، المؤرخة بتاريخ يرجع لمنتصف السبعينيات القرن الماضي. جملة مذكرات، ظننتُ بأنها كتبت لغرض مقاومة النسيان. هي بلا شك المرحلة الأولى من شعوره بفقدان القليل مما يمتلكه من ماضيه. في ذات الفترة كتب مجموعة أخرى من الدراسات التي يمكن وصفها بمقالات لم تنشر وضعها في قسم الأرشيف الشخصي ضمن الكتابات الأولى التي تؤرخ حياة المدن الليبية وتلك التي يعتقد بأنها متآخية مع المدن الليبية، كانت كتابات قصيرة تحمل عنواناً غامضاً هو مكة والمدن الأخرى.

ضمن هذه الدراسات تظهر بدايات تاريخ المكتبة بالمنطقة لأجل

كتابتها أعتمد على المئات من الوثائق المترجمة والروايات الشفوية التي تم جمعها بطرق مختلفة، المخطوطات التي سطّرها قضاة بعض تلك المدن الصغيرة، قوائم المبيعات اليومية الخاصة بالتجار المتجولين، الدراسات التي اهتمتُ بالحركة السنوسية في مقارنة مع دولة محمد علي باشا، ربط كتاباته بشكل شخصي بتاريخ عائلته التي قطعت مسافات كبيرة حتى وصلت إلى حيث هو، العودة بالنسبة إليه كانت أمراً ضرورياً لمعرفة صداقاته كذلك في معرفة عداواته. أبحاثه عن معاني الكلمات عن قوتها، سطوتها، تبرر الاتجاه الذي اتخذه لنفسه. «تبدو مهمة شاقة». قلت لأوقف الصمت الذي هيمن فجأة، ابتسم بعدها مؤكداً: «نعم، إنها الأكثر مشقة. حين تفقد كل شيء عدا الكتب، أن تغدو ذاكرتك محط العناوين فقط، تصبح طبيعياً تماماً في اتجاهك كقارئ، إنها نهاية الدورة، أين تذهب شخصية الإنسان الأولى؟ لطالما فكرت في هذا، لطالما شعرتُ بأنني مررتُ بمراحل مشابهة. الاستمرار بالقراءة حتى تغدو الطبيعة المتحكمة بالشخصية. عندها لن أعود ما كنته سابقاً. هنا تكمن قوة مجلدات والكتب. القدرة على عزلنا تماماً عن محيطنا المعتاد. تتركنا في زاوية جديدة أو في عالم مختلف تماماً. ليس لأنها تفعل ذلك، بل لأن شخصيتنا الجديدة تفعل ذلك. كل ما هنالك إن الكتب كشفت لنا قدراتنا على احتمال أنفسنا، على اختفاء الوحدة من حياتنا، لن نفتقد شيئاً بعد الآن، لن يعذبنا أي طموح شخصي، لن يقتلنا الحسد في براءتنا لقاء أي شيء مهما بلغت قيمته، بالمكتبة ننسى كل تلك الصغائر، لن يعذبنا الفقدان أي لحظة أخرى». لا يمكن فهم تلك اللحظات، فالكلمات التي تخرج

من أفواهنا، مرتبطة بشدة بواقعنا، بتلك اللحظات التي خرجتْ خلالها تلك الكلمات، لا يمكن فهمها من دون تفهّم للواقع. ضمن إحدى الأرفف وجدتُ دفتراً صغيراً أنهى كتابته خلال السبعينيات. مذكرات لا تتعدى الثمانين صفحة تتحدث بشكل شعري مكثّف، عن حياته في لبنان خلال الخمسينيات، التقائه بالشركسية الآتية من أمريكا كممرضة بصحبة إرسالية، قارئة نهمة، ذلك الأسلوب الذي لم يكن غريباً عني. التاريخ الشعري. حين وجدتُ مذكرات المسنّ تأكدتْ تلك الشكوك، فالمعلومات التي كان يكتبها صديقي قريبة من المعلومات التي أوردها المسنّ عن نفسه. كان يشد على يديه بقوة، فتختفي التجاعيد لوهلة كالأوهام. كنا بين الأرفف الخاصة بالسجلات القومية المطبوعة خلال السبعينيات والتي تروي قصصاً رهيبة عن الحروب القومية في دمشق، بغداد، بيروت والقاهرة. كان يمكن إيجاد بين صفحاتها صور صحافية مدهشة بالأبيض والأسود عن الضباط اليمنيين وآخرين عن الصفوف المنهكة لقوات الإمام فيما تقف الجيوش المصرية بثبات متراجع وهي تحدّق في الفراغ، أطلق عليها المسنّ: ضريبة البقاء. لم يكن الدفع مبهجاً كما كان بالنسبة للمسنّ خلال فترة شبابه. في تلك المكتبة يمكن ملاحظة عدم السعادة في كل رف من الأرفف المعدة بإتقان باهر أشبه بالوهم الماسي.

«ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ - خلال يوم مختلف يتساءل ثم يواصل - مجرد ضريبة، قد تكون قاسية، لكنها تظل واجبة. عشتُ زمناً قاسياً في نظر البعض لمجرد إنهم يرونني في مكتبة. لكن أتعرف؟ أشفق عليهم! بدايات الخمسينيات كنت أحسدهم،

أصبحتُ أشفق عليهم، أيمكن اعتبار هذا نصراً، أيمكن؟ مع ذلك أعرف بأنني منتصر ليس لأنني أشفق عليهم، بل لأنني لم أعد أخشى البقاء وحيداً! أجل، صحيح تماماً. الخوف من البقاء وحيداً لم يعد مهماً بالنسبة لي. قبل سنوات طويلة عام 1955 داخل إحدى المكتبات البيروتية، التقيتُ بممرضة أمريكية، عالجتني مراراً عقب ملاكماتي الليلية، لكنني لم أكن أراها جيداً، كنتُ منتشياً بالجروح التي تغطي جسدي بالتوهج الروحي. لكنها سألتني عند طاولة الكتب: «يا إلهي، هذا أنت تبدو مختلفاً بلا كدمات أو جروح». كنتُ فعلاً بلا جراح ظاهرية، ابتسمتْ. لا زلتُ لا أعرف كيف، لكنني ابتسمتْ. أحكي لك هذا، عمري قرابة الثمانين. لكنني في الحقيقة أشعر بأنني في العشرين. «صحيح، مختلف». قلتُ آنذاك زمن بعيد لكنني أتذكر كل شيء. طاولة الكتب بجانبي، الأغلفة الجيدة للمجلات الناجحة، الإضاءة الخافتة، أرى تلك الكتب الموزعة بعناية على الطاولات، المكتباتي المسنّ، كان يبدو أصغر مما عليه أنا هذه اللحظات، ربما في الأربعين، لكن مشاعر كانت دوماً تجعلني أشعر بأنه مسنّ جداً، لماذا؟ مع أنه كان في الأربعين كما أعرف الآن إلا إنني ظللتُ أشعر بأن مسنّ جداً آنذاك. هل كنت أتحوّل إلى ما كان هو يوماً، هل كنت أنسى نفسي أم أنسى العالم؟ أليس هذا غريباً على كل حال، لكنني ظللتُ دوماً أحس بأن تلك هي المسألة كاملة، النسيان. ليس مجرد اختفاء الحدث من الذهن، بل تغيّره تماماً إلى حدث مناقض. لذا رأيتُ بأن الشاب الأربعيني كبير في السن دوماً، حتى وأنا في قرابة الثمانين ربما حتى لو وصلت التسعين فإنني سأظل أشعر حياله بهذا

الشعور، كونه أكبر سناً مني آنذاك حتى لو عدتُ لسنة 1955 بسني الكبير هذا، وظل هو في الأربعين فإنني سأظل أشعر بأنه أكبر مني سناً، هذا غريب بالنسبة لأي شخص، إنني أتحدث عنه لمجرد أنه غريب. البقاء وحيداً مساءلة معقدة».

كنتُ أعرف هذا جيداً. أحد أصدقائي أخبرني عرضاً بأن العزلة تُعلم القسوة. لوهلة الأولى عرفتُ بأنه قول حكيم، لم أتوقعه منه، لكنني رددته بيني وبين نفسي. هل كان المسنّ قاسياً بسبب الوحدة؟ حول تلك الفترة البعيدة من السبعينيات كتب مستخلصاً ضمن مسودة وجدتها مرمية عند إحدى الأرفف الخاصة بالأدب الايرلندي، كانت جزءاً من حوارية قديمة، لا شك متخيلة، كتبت منتصف العقد الأول من القرن الحالي مع الموجة الأولى من سقوط الديكتاتوريات العسكرية التي حكمتْ لنصف قرن من العزلة وانقسام المنطقة سياسياً واجتماعياً، تاركة مكانها للفوضى العارمة ونشوب الحروب الأهلية المتتالية، دعتْ القوى الكبرى إلى العودة للمنطقة بشكل واضح أحياناً، في حين اختفوا وراء أساليب هوليوودية في أحيان أخرى لإشعال المزيد من الحروب الأهلية الصغيرة واللا نهائية، أخذتْ تتزايد على نحو فظيع وقد امتلكتْ ذاكرتها الخاصة، من خلال أحداث قرنين مشحونين بالأسماء والرموز القادة الذين راحوا ضحية الاغتيالات السياسية أو الإعدامات العلنية كخونة، موجات انتقام كانت دوماً تغدو نواة حرب جديدة تستمر لسنوات، تاركة المدن خراباً، أوقفتْ الحياة لفترات طويلة. لا شك أن هذه الكتابة العرضية كانت محاولة للفهم الشخصي وليس بحثاً أو مقالة أو حتى مجرد تلخيص عقب

قراءة السجلات القومية التي تم تدشين أعداد ضخمة منها خلال فترة السبعينيات وهي تحوي خطابات الزعماء القوميين ولقاءاتهم الصحفية ببعض أشهر الصحفيين المخضرمين الذين تركوا بصمة في الصحافة العربية منذ ثلاثينيات القرن العشرين. كانت ذاكرته الحديدية لا تزال حديدية، حين أخبرته أثناء جلستنا تلك الليلة عن الورقة–المسودة التي وجدتها بجانب أرفف الأدب الايرلندي الحديث.

«لطالما اعتقدتُ بأن فقدان الواقع، مسألة خيالية - عرفتُ فيما بعد بأنه كان يتلو نصاً قديماً - منتصف السبعينيات كنت في احدى المقاهي الشعبية المكتظة. كانت البلاد تموج كالمتوسط نفسه، لطالما أحسستُ بأن طبيعة المتوسط تفعل هذا، الرحالة القدماء، الذين تاهوا بين العواصف البحرية، حملوا شخصيات تأثرتْ بقوة تلك العواصف التي تخلق البشر من جديد، ألا تعتقد هذا، هل شهدت عاصفة في أي يوم، إنها مشاعر قوية، قوية تجعل الماضي والحاضر في تشابك رهيب. تغيّر كل شيء، الناس، المدن، الماضي، لغة الخطاب، الحماس، النصف الديني والنصف الوثني، تحولات الصراخ المجنون عبر الطرقات، كنتُ رأيتُ ذلك خلال خمسينيات بيروت. آنذاك كنتُ حراً تماماً. كنتُ نشرتُ مقالات كانت تتحدث عن أثمن رحلات حياتي حتى تلك اللحظة العميقة الإيمان أثناء جلستي في المقهى، كنتُ في التاسعة والثلاثين، مستعداً لعيدي الأربعين بصمت كامل الرضا. تلك المقالات الثلاث منحتني قدرة الصمود مجدداً، للعودة لكتابة عمل مهمّ كنتُ بدأتُ نهايات الخمسينيات في كتابة سيرة ذاتية لمسؤول ليبي. حين انتهتُ من القسم الأول، استلمتُ مكتبتي الخاصة

بشكل كامل، فخبتْ تماماً رغبتي بالتواصل مع الناس.

المكتبة بدتْ لي بشكل غامض مرتبطة بالحروب الأهلية. قضيتُ السنوات التالية في أعمال متعددة إلى جانب كتابة المقالات بأسماء مستعارة، العمل على إتمام نص السيرة الذاتية للمسؤول الليبي الذي اتفقتُ معه على منحي مرتّبا جيداً لقاء كتابتها، كما كنتُ أنهي مذكراتي الشخصية معتمداً على القصص المتداولة عن والدي وجدي. صداقاتي التي انهارتْ ولم تصمد مع السنين الصعبة اللاحقة، كنت أفقد المزيد منهم كلما مرتْ الأيام، كلما دارت الساعات السويسرية المتقنة الصنع، كنت أفقد المزيد منهم. لسبب ما كنت أشعر بضرورة إثبات نفسي لهم، مرهق ذلك الإحساس الذي غمرني طوال سنوات، لولا الكتب التي كنت أقتنيها، لغدوتُ مجنوناً عبر طرقات بنغازي الملحية. الإمعان في كل شيء، القلب المالح، كنت امتلكه بقسوة، تلك اللحظات الصغيرة التي تتوالى دوماً، صنعتْ مني غاضباً، أفهم كيف ولدتْ شخصية الديكتاتور في هتلر، أفهم جيداً، لكنني أعرف بأن النصر في الحرب العالمية كان كفيلاً بجعل هتلر نفسه المثال الحي، للإنسان المكافح طوال العقود اللاحقة - أي عالم سينشأ عندها؟! - لدي الكثير من النصوص التي تتحدث عن الحروب العالمية، موسوعات جيدة، السيرالذاتية ممتازة، أفلام مرتبة كرنولوجياً، برامج وثائقية تمت إعادة ترميمها لتطابق العصر، رايتك مهتماً بها، أنت مهتم بالحروب العالمية كاهتمامك بالحروب الأهلية، كنت مثلك، كما كنت مثل هتلر، أقول هذا لأظهر مدى تطور رغباتي ووضوح رؤيتي، لكنني وجدتُ الخلاص بعيداً عن الناس

عن مادة الديكتاتورية، كنتُ أقضي الوقت في تتبع مصائر الشعوب خلال المنعطفات التاريخية، كما كنتُ بعيداً عن الوسط الليبي منذ الخمسينايت حتى السبعينيات - عند هذا الحد أشار كمن يُذكّر نفسه - بيروت الخمسينيات كانت مكاناً عظيماً».

كانت البداية الفعلية لرؤيتي المختلفة عن المكتباتي وممرات المكتبة، كنت وجدتها بعد حوالي السنة من ترددي عليه واقتناعي بأنه يمتلك قصة حقيقية.

«أقطن مكتبة صغيرة لا يعرف عنها أحد شيئاً – يقول في جزء آخر من المسودة – حتى أنا نفسي لم أكن أعرف عنها الكثير، تائهاً بين مراجعات صغيرة، مقالات مليئة بالأخطاء النحوية والأوهام الروحية التي تبدو كالطموح. كنت مثل الجميع تقريباً، أعيش بكل صخب نافياً كوني كالجميع. أتطلع بعمق إلى أشياء مختلفة غير ذات عمق أو معنى. حين أتطلع إلى الماضي، أظن بأن كل شيء، كل شيء، كل حدث مهما كان صغيراً بمثابة ضرورة في إنهاء بناء ما أنا عليه».

كتب تلك الفقرة الأخيرة خلال منتصف السبعينيات لدى بلوغه التاسعة والثلاثين. بإيجادي لتلك القصة الذاتية عرفت بأنني أمام شخص كان يود العودة إلى أصله، . بلوغ الأربعين ربما يفعل هذا بالرجل، بكل رجل. الشعور بقرب انتهاء توقيته الشبابي ربما، اقترابه من الشيخوخة. حاجته للإثبات بأنه مهم في هذه الحياة، شعوره بتخطي مرحلة الشباب نهائياً. ربما بدأ البحث عن ذاته في تلك المرحلة. هكذا بدأت كتابة مطلع مسودتي الأولى عن المكتباتي المسنّ. متسائلاً: ماذا الذي دفعه لهذا ليخبرني بأنه أدرك بأنه أكثر من

مجرد مسنّ شركسي. كيف توصّل إلى إنه أكثر من مسنّ شركسي؟!
فقد بدا لي كأنه اكتشاف متأخر. الكتابات الشخصية التي عكف عليها
طويلاً تلك الفترة من حياته، بالنسبة إلى بقية حياته، الأكثر تعلقاً
بالوحدة والرغبة في استعادة كل شيء. العودة مجدداً إلى التفاصيل
الصغيرة للماضي أشبه بالعودة إلى التجمعات البشرية. ضمن إحدى
مراجعاتي الأولية استطعتُ إيجاد رابط بين أسلوبه الكتابي وطريقته
الصوفية بين أرفف المكتبة التي غدتْ حياته الأخيرة. كأن تلك الفترة
التي استمرت طوال ستة عقود، لم تكن بالنسبة إليه إلا لحظات مهمة
للتفكير حول الطريقة الأنسب لكتابة ما يود التفكير فيه حول ماضيه
المنتهي إلى الأبد. اعتقدتُ بأن البحث عن أسلوب خاص في الكتابة
هو نوع أصيل من وقائع البحث عن الذات، الهوية والأصل.

من هذه الناحية كان المسنّ يبحث فعلاً عن ذاته، أمر لم ينكره مطلقاً.
الانتماء لأسلوب كتابي حقيقي وقوي باعث على الأمان والاستمرارية.
أغلب الأدباء الكبار في عصرنا الحديث بحثوا عن الخلود بأن أشاعوا
أنفسهم في إبداع أسلوب حياة للآخرين فإن هذا النوع من الرغبات كان
بالنسبة للمسنّ المكتباتي معكوسا تماماً. فهو لم يعتمد أسلوباً يمكن أن
يكون شائعاً، إنما فضّل أن ينسحب من كل تفاصيل الحياة التي تجمعه
بالآخرين. بالإمكان دوماً إيجاد داخل مكتبته المنقحة الخاصة، دراسات
جمعها هو شخصياً من أساليب عيش الفلاسفة، العلماء مع بعض رجال
الدين. سير ذاتية تجمع أعظم اللحظات كشفاً في حيواتهم الشخصية.
اعتقدتُ طويلاً بأنها لحظات تمسه شخصياً. كان مولعاً بشخصيات
الأبطال الحقيقيين، محاربي الطواحين.

ضمن المذكرات التي تركها المسنّ المكتباتي، حاولتُ إيجاد أرضية صلبة لأقف عليها من أجل فهم ما يمثّله المكتباتي عموماً. مثال لم أكن أستطيع رؤيته أو إيجاده، حتى فترة متأخرة. ليس على الدوام أفهم ما كان يقوله أو ما كان يخطه داخل العتمة الشفافة لممرات المكتبة، إنما دائماً كنتُ أعود من أجل البحث حول تفاصيل الصورة الكاملة ضمن أسلوب كتابته، الذي يجعلني دوماً أشعر بأنه نابع مني. كنت مهتماً بالبحث عن أسباب عزلته الكبرى وتأثيرها في أسلوب تأليفه كما أن وصف المكتبة بالسرية أثار اهتمامي بشدة. ما هي السرية في مكتبة ضمن مبنى بلمسات استعمارية - محلية على الواجهة الشمالية للمدينة؟

ذلك الجزء الأصيل من الزمن لا يُمكن نسيانه. بعد كل هذه السنين لا زلتُ تائهاً ضمن وجوده الشبحي. ابتساماته الشاردة. بقايا عشقه القديم كالتصوراتُ المقلقة. لا يمكن نسيان تلك الابتسامات التائهة. عدم تمازجه التام بالمكتبة بسبب تلك العينين المبتسمتين التائهتين ضمن ذكريات معتمة. بالرغم من أن البحر المشرق بالفيض الشمسي. النوارس السابحة بانسيابية مع تيارات الهواء. الجمال الذي يضج عبر الطرقات خلال الخمسينيات. حين كانت بيروت مكاناً عظيماً. دفعته لشخصية غير التي ولد بها أو التي عكس التي رأيته بها. في بيروت اشترك في أكثر مباريات الملاكمة عنفاً، ضمن إحدى فصول يومياته - التي عثرتُ عليها لاحقاً - حكاياته اللا منتظمة عن اشتراكاته في الرهانات والمباريات، وأنها كشفت لي - كما كشفتْ له - شخصيته الخفية.

«الملاكمة الليلية تحرر الروح كالموسيقى المعتمة».

هكذا أخبرني بشيء من الحزن، ذات مرة.

كنبة وثيرة، جلسة هادئة، أمام المجلدات الضخمة للتاريخ الليبي من أزمان سحيقة. مخطوطات، ترجمات، سير ذاتية، أعمال أدبية، لكنه يراها مكتبة بلا قيمة أحياناً، لا شيء حقيقي بالمطلق.

كان المسنّ جالساً على الكنبة الوثيرة محاطاً بالكتب والمجلدات، على ركبتيه مجلد قديم مهترئ فيما ارتسمت على وجهه علامات شحوب حاول جاهداً إخمادها، دفء يديه، عيناه المنهكتان، لحيته المسترسلة ببياض ناصع على ملابسه الكالحة السواد، في خنصره الأيسر خاتم فضي غليظ كالقمر المعلّق.

إذ ذاك كانت سنواته تمر سلسة!

تمت

شكري الميدي أجي

المكتباتي

لم تمر سنواته بسلاسة، هكذا أكد خلال جلستنا داخل مكتبته الخاصة شمالي بنغازي، كان الوقت يشير الى منتصف الليل، جالسين بين الأرفف الثقيلة، الكتب تبدو بأغلفتها تحت الأضواء الخافتة كحرس ديكتاتوري، فيما أخذ البحر يهدر من وراء عتمة الهدوء. كان يعيد ترتيب قطع حياته منذ ولادته الأولى. تحت الضوء الخافت.

كان حديثنا. المجلدات صامتة، بأغلفتها الجلدية ذات الأحرف المذهبة التي تتراقص فيها الأضواء المنسابة من الطريق عبر نافذة المكتبة أو من المصباح المتدلي من السقف الرطب للممر الجانبي الذي يقود إلى صالة القراءة، رقصات الضوء ناعمة

أخبرني بأنه عاش طويلاً، كما قال بأنه شهد الكثير، استمعت إليه، لكل كلمة نطق بها، كنا داخل شقته التي غدت مكتبة فيها ما يقارب تسعون ألف من المجلدات القديمة، حين صمت عن سرد طفولته، استمر البحر المتوسط بالحديث بعيداً، استمعت إليه أيضاً، إلى كل موجة مست تراب المدينة، موجة تلو الأخرى، تكسرت زبداً، من النافذة المفتوحة كنت أرى بضع نجيمات تضيء بكسل فوق الميناء كدأبها منذ قرون«لم يتغيّر الناس فقط، إنما أشياء كثيرة تغيّرتْ».

